العشق المنتظر

رواية حوارية

د. علاء الدين التهامى

٢٠١٨ م

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة: الأولى

الكتاب: حوارات فى العشق

المؤلف: د. علاء الدين التهامى

تصنيف الكتاب: رواية

التصميم والإخراج: م/ محمد سالم

المقاس: ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع: ١٦٣٥٢ / ٢٠١٨

الترقيم الدولى: 978 - 977 - 776 - 721 - 7

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

عادى

عادي عادي هذه قصــة حياتي/هل يعني هذا أن ذواتنا هي مصدر علومنا؟/ لابد من مرآة ينعكس فيها الحب ليتجلى/ فمــا بدء الحب وما منتهاه؟/عليك أن تشــربها مرة واحدة فقط لتفهم السر/ ما دمت جئت أرض فارس فعليك بأرض الروم/كثيرون يبحثون عن أجوبة ولا يبحثون عن المعرفة/ أريد أن أتعلم لغة الحب/الحب نور والشوق نار/ التقليد إن كان في الفقه مطلوب فهو في الحب غير مرغوب/ أيــن هذا المحبوب؟ أين أرضه أين سماه؟/لم يبق في جعبتي ســوى قرية الرياحين/ أحكيم أنت أم ساحر؟/ أخشى إن أكملت أن أفقد ما وجدت/ الحب نعيم الروح وجحيم العقل / مشكلة الهوى في الهوى/ أو كل هذا في الحب يقع؟/ ومع ذلك ترقص خمس مرات في كل يوم وليلة!/ رغبة لا ترتوي وغربة لا تنتهي/ ومتى يأتي هذا العشق المنتظر؟

مُقَدِّمَة

هذه ليســت رواية وإن اشــتملت على بعض سماتها، وهــذا ليس كتاباً أو بحثاً بالمعنى المألوف، وإنما حوارات في العشق، ورحلات في الهوى.

شــخص عادي، نشــأ في بيئة عادية، تعلّم في مدارس عادية، يعيش حياة عاديــة، يشــغل وظيفة عادية، تزوج فتــاة عادية، وأنجبــوا أولاداً عاديين، وينتظر أن يموت ميتة عادية.

هذه هي قصــة حياة «راغب غريب»، وربما تكــون قصة حياتك وحياتي أيضاً، نصف قرن على ظهر البسيطة لم تغير من مضمون القصة شيئاً، ولم يبق إلا الفصل الأخير، فصل «الميتة العادية»، ولكن شــيئاً ما في صدره يرفض هذه الخاتمة، شــيءٌ ما يأبى أن يستســلم لهذه النهاية العادية، هل ســيخرج من الدنيــا كما دخل؟ إذا كان دخول الحمام ليس كالخروج منه فما بالك بالحياة؟ هل تحققت الحكمة من وجوده؟ هل قام بدوره الذي خلق له؟ وهل نفذ دوره؟ وهل انتهى أمره؟

أسراب من الأسئلة تطوف في سماء ذهنه، كلما حاول أن يدرك سرباً منها تحول السرب إلى سراب، هناك أمر غائب عن حياته يجعلها بلا معنى، هناك معنى تائه لا يســتطيع أن يجده ولا أن يجد نفســه بدونه، هناك شعور غائب

عن قلبه لا يستطيع أن يحيا دون أن يحسه ولا يريد أن يموت دون أن يتذوقه، هناك قيمة مفتقدة لابد من حضورها ليصبح لعمره قيمة.

ربما ينقصه العلم والمعرفة... وقد يكون مفتقداً لمعاني البطولة والتضحية... أو لعله يحتاج الحب والهوى.

ماذا كان ينبغي على «راغب غريب» أن يعرف خلال تلك العقود الخمسة ولم يعرفه؟

يقول في نفسه: قد عرفت أن لهذا الكون إلهاً واحداً، وأن الدنيا دار بلاء وأن الآخرة دار جزاء، وقد عرفت الخير والشر، وعرفت ما أمرني به وما نهاني عنه، قد عرفت إجابة الأسئلة المصيرية الثلاثة: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ فلماذا لا أشعر بالارتواء والاكتفاء؟

قد عرفت تلك الإجابات منذ سنوات، ثم ماذا بعد؟ لماذا عشت بعدها؟

ربما هناك أسئلة لم أعرف إجاباتها بعد، ربما الإجابات ليست النهاية وإنما البداية، المعرفة تتطلب اللزوم «عرفت فالزم»، واللزوم لا يثبت ولا يتأكد إلا بالنجاح فيما سيلي المعرفة من الاختبارات، كشأن كل مؤسسة معرفية معتمدة تعلم منسوبيها ثم تمتحنهم ثم تجيزهم، وعند الامتحان تبرز الحاجة إلى قيمتي التضحية والبذل، وبقدر ما يعطي الإنسان من الغالي والنفيس بقدر ما تعلو قيمة حياته، فالبلاء هو المعيار الحقيقي لقدر الإنسان؛ لأنه الكاشف عن معدنه والمسفر عن صدقه والمبين لمنزلته، ولما كانت حيوات

الأنبياء أشرف وأكرم الحيوات قيمة وكانت أقدارهم هي الأعلى والأنفس كان نصيبهم من البلاء هو الأوفر والأعظم، ثم الأمثل فالأمثل.

في النهاية التضحية موقف وليست قراراً، بمعنى أن هناك مواقف معينة تواجه الإنسان وتتطلب منه التضحية وعليه أن يلبي أو يولي، وقتها سيعلم مقدار هذا المعنى في حياته، وعندها سيعلم أيضا قيمة حياته، وكذلك البلاء قدر وليس اختياراً حتى وإن تعمد الإنسان السير في طريق المنايا فلن تفارقه الأماني، ولن يفتر حديث نفسه له بالنجاة، فإن أصابه البلاء نتيجة لسيره في تلك الطريق فلا يقال قد اختار إلا مجازاً، لا تقل شئنا فإن الحق شاء.

ماذا لو لم تعرض له هذه المواقف ولم ينزل عليه ذاك البلاء؟ أيطلبها؟ أيتمناه؟ أيتعرض لها أو له؟ كلا.. ما كان «راغب» ليفعل، لقد مضت سنون الشباب، ولم تعد هناك فسحة للتجارب، وقد علمته كهولته ألا يتمنى لقاء العدو، وأن يسأل الله العافية، وأن يعرض نفسه للنفحات لا أن يذلها بتعريضها لما لا تطيق من البلاء.

لم يبق إذن سوى الحب، ربما يكون أقصر الطرق وأيسرها، وربما يكون أشقاها وأطولها، وربما إذا أدركه فاز بالثلاثة، فمن ذاق عرف، ومن حب بذل، لماذا غاب هذا المعنى عن حياته؟ لماذا لم تهتز أوتار قلبه ولم تُنقر دفوف وجدانه؟ لماذا لم تذب روحه يوماً عشقاً، ولم يملأ نور الحب دوماً كيانه؟

لا يزال يذكر بيتين لإيليا أبي ماضي من شعر الغربة والاغتراب يقول فيهما:

إن نفساً لم يشرق الحب فيها هي نفس لم تدر ما معناها
أنا بالحب قد وصلت إلى نفسي وبالحب قد عرفت اللّه

و هو لا عرف ولا وصل، هناك فارق بين أن يعرف الإنسان شيئا أو أشياء عن ربه وبين أن يعرفه هو، وهناك بون بين أن يعرف الشخص نفسه المزيفة وبين أن يعرف نفسه على حقيقتها، أحيانا يرى «راغب» الحيوانات والنباتات والجمادات رموزا وإشارات تشير إلى حقائق البشر، وما الغريب في ذلك؟ ألسنا كلنا ننتمي إلى أمنا الأرض؟ من رحمها خرجنا وإلى بطنها نعود، بل يظن إنه يستطيع أن يرى تلك المخلوقات بوضوح داخل قلوب بعض «الآدميين»، فهناك من لهم وجوه البشر وقلوب الذئاب أو الضباع، وهناك من لهم قلوب من زهر أو من ذهب ومن لهم أفئدة كأفئدة الطير.

ترى لو فُتح قلبُه ونظر فيه فأي صورة سيجد؟ أسد أم غزال أم حمار؟

لا بد من فتح الصندوق الأسود، لا بد من فتح القلب صندوق الأسرار، لا مفر من الارتحال والبحث عن إجابة السؤال، ماذا يوجد داخل الصندوق؟ ولماذا؟ ولماذا لا يوجد غير ما يوجد؟ وكيف يوجد ما ليس بموجود؟ كثيرون من الناس يقطعون الفيافي والقفار في مشارق الأرض ومغاربها بأبدانهم ولا يتقدمون خطوة واحدة بأرواحهم، وقليلون من لا يخطون خطوة واحدة على الأرض ويعرجون في السماء، وهو يريد أن يكون من هؤلاء القليلين، يريد أن

يعرف نفســه، أن يدرك الغاية من حياته، أن يقــدم على ربه يوم يقدم عليه وهــو يعرفه إذ كيف يرجو رضوان مــن لم يعرفه؟ وماذا لو كان تصوره عن الله تعــالى غير صحيح وظــل يعبد هذا الإله المتصور في ذهنه طوال حياته حتى إذا وقف بين يدي الإله الحق يوم القيامة اكتشف أنه ليس كما كان يظن أو يدرك أو يتخيــل وأن من كان يعبده في الدنيا غير من وجده في الأخرة، فكيف يطلب ثواب من لم يعبده؟ إن كان الحب سبيلاً فأين السبيل إلى السبيل؟

من أين يبدأ؟ وكيف يبدأ؟ ومع من؟

إيــهٍ يا «راغــب».. متى ترغب إلى ربك؟ إنك لن تجــد ما تطلب إلا عنده، ولــن تعــرف ما تريد إلا منه، ولن تصل إلى غايتــك إلا به، ولن يكون المنتهى إلا إليه، فاعبده وتوكل عليه، ها أنت قد عبدته ببدنك كلفة، وعبدته بنفسك مجاهــدة، وعبدته بعقلك قناعة، فلــم يبق إلا أن تعبده بقلبك حبا، وبروحك شوقا، وبسرك قدسا، عندها تكتمل ذاتك ويتحقق وجودك، فهل أنت إلا بدن ونفس، وعقل وقلب، وروح وسر.

علامة أن تعبده بقلبك أن يدق فتطمئن، وعلامة أن تعبده بروحك أن تذكر فتحن، وعلامة أن تعبده بســرك سر خفي، دَقة القلب أن يلين بعد أن يقشعر ويضطــرب مع الذكر حتى يطمئن، وذكر الــروح أن تذكر الميثاق الأول وقولها «بلى» لربها فتشتاق وتحن.

إيــهٍ يا «راغب».. متى تعرف أن الذي في الســماء إلــه هو الذي في الأرض الإلــه؟ على مــدى العصور والدهور يجــادل أهــل الأرض في ألوهية الله فيها

ويشـــركون غيره معه، ولكنهم يقفون أمام ألوهيته في السماء مبهوتين، فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين، كم إلها تعبد يا «حصين»؟ قال: ســبعة في الأرض وواحد في السماء.

و ما ذلك إلا لأنهم يظنون أن لهم في الأرض فعلاً مع فعله وإرادةً مع إرادته واختياراً مع اختياره وتصرفاً مع تصرفه وتدبيراً مع تدبيره، ولكنهم يوقنون أن ليس لهم من ذلك شــيءٌ في الســماء، ليس لهم إلا أن ينظــروا إلى أبراجها وأفلاكهــا ونجومها وأقمارها يتمتعــون ويتفكرون، ويتعلمــون ويتعجبون، ويتحيرون ويســتهدون، ويأملون ويتأملون، ثم يرتد إليهم البصر خاسئاً وهو حسير.

كــم من صديق رافقني ثم فارقني، وكم من أخ اصطفيته ثم تركته، وكم من موقــف أضحكني ولم يضحك غيري، وكم من حــادث أبكى غيري ولم يذرف له دمعي، وكم من أشــياء علمتها دون أن أتعلمها وكم من أشياء طلبت تعلمها ولم أعلمهــا، وكم من طريق ظننتها تقربني فأبعدتني رغم أنني رأيتها تقرب غيري، وكم من قصةٍ حكيت لي فأرشــدتني مع علمي بأنها أضلت غيري، وكم من سيئة جاهدت للتخلص منها فغلبتني وركبتني، وكم من معصية دون عناء اجتنبتني وتركتني، كم من حســنة طلبتها ففاتتني وكم من طاعة بغير طلب أدركتني، وكم من سهام تفاديتها فأدمتني وكم من سنان فاتكة أخطأتني !

شــغلت التطورات في العلاقات بين البشــر ذهن صاحبنــا وحيرته، وكلما تأمل في مســاراتها أضلته، متى تفتر ومتى تشــتد؟ ولماذا بعــد التوثق تنفك؟ وكيف يســتمر الحب إذا كان من طرف واحد؟ وهــل إذا نال المحب محبوبه ذبل الحب؟ قصة مجنون لبنى تنفي ذلك ولله الحمد.

و لكــن هل يتصور الحب بين عبقــري وأحمق، أو بين حكيم وأخرق، لقد صــدق الشــعراني رحمه الله عندما تصور أنه مــا كان لله أن يتخذ جاهلا وليا، فأكمل له شيخه على الخواص رحمه الله الصورة بعد ما قرأ ما في نفسه بقوله: « إن شاء علمه ثم اتخذه.»

و لكن الله تعالى وصف العلماء بالخشــية (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ووصــف المؤمنــون بالحب (والذين آمنوا أشــد حبا لله). وقد علمنا من الســيرة والتاريــخ أن الجبل والجمل والنخل يحبون ويئنون ويحنون، فالحب لا يعرف الفوارق ولا توقفه الحواجز ولا تمنعه الحجب.

و هكــذا وجــد صديقنا «راغب غريــب» بعد رحلتــه في ذاكرته أن جميع اللحظات الســعيدة والجلسات الممتعة والحوارات الشــيقة واللقاءات الباهرة والنظرات الســاحرة والمشــاعر الدافقة والأفــكار الرائقة واللمســات الدافئة واللمحــات الخارقة والعزمات النافذة التي عاشــها مــع أحبائه وأصفيائه لم تكــن منهم ولكن كانت من تجليات الله فيهم، فهؤلاء الأحباء والأصفياء الذين أضــاءوا ماضيه بالأنوار الســاطعة لا يزالون أحياء يرزقــون ويلتقي بهم بين الحــين والحين ولكن لا يجــد في الحاضر ما وجده حيناً من الدهر، وإنما بقية أثارٍ من الأنوار الباهتة.

و قريــب من هذا ما يتحدث به العديد من المتصوفة عن إغاثة الأولياء لهم أو إرشــادهم إياهم في زمانٍ غير زمانهم أو مكانٍ غير مكانهم، هي في جوهرها تجليــات لرحمات أو هدايــات من رب الأرض والســموات تنزلت على بعض العباد في صورة محببة لهم كشيخ كريم أو ولي صالح يعرفونه، وقد يعلم بهذا صاحب الصورة وقد لا يعلم.

لا تسألوني... ما اسمهُ حبيبي

أخشى عليكمْ.. ضوعةَ الطيوبِ

واللّه.. لو بُحتُ بأيّ حرفٍ

تكدّسَ الليلكُ في الدروبِ

ترونَهُ في ضحكةِ السواقي

في رفّةِ الفراشةِ اللعوبِ

في البحرِ، في تنفّسِ المراعي

وفي غناءِ كلّ عندليبِ

في أدمعِ الشتاءِ حينَ يبكي

وفي عطاءِ الديمةِ السكوبِ

محاسنٌ.. لا ضمّها كتابٌ

ولا ادّعتها ريشةُ الأديبِ

كفاكم لا تسألوني... ما اسمهُ

فلن أبوح باسمه حبيبي

و لكــن من هذا الحبيب الــذي لن يبوح باسمه؟ وكيف يبوح باســم من لا يعرف اسمه؟

* * *

كان «راغب» يمشــي على شــاطئ البحر بعد منتصف الليل في ليلة بلا قمر يراقب الأمواج المتتابعة على الضوء الخافت المنبعث من شــرفات بعض المنازل القريبة من الشــاطئ في تلك القرية الســياحية التي اعتاد أن يمضي فيها بعض أيــام الصيف يفكــر فيما مضى وفيما هو آت، وبينما هو يســعى بين ذكرياته وتأملاتــه انقطع التيار الكهربي عن القرية فغرقت في الظلام الدامس، فتوقف يفكر هل يعود إلى بيته أم يكمل ما بدأ من تريضه؟ وقرر بعد لحظات أن يكمل وأشــعل ضوء هاتفه ليبصر ما تحت قدميه، ثم بدا له أن الظلام من حوله ليس بأشد مما بداخله فقرر أن يطفئ المصباح ليتساوى لديه الخارج والداخل، وبدأ يجرب الســير في الظلام محاولا قدر المســتطاع أن يحافظ على الخط الذي كان يســير فيه حتى لا يصطدم بالعوائق وكي لا تعرقله العقبات، لكن بعد مسافة قصيرة اصطدم بشــيء أجبره على التوقف وإعادة اشعال المصباح فأدرك أنه قد انحرف عن الطريق انحرافا بعيدا في زاويته رغم قرب مســافته، وتبين له أن مــا أوقفه كانت إحــدى حاويات القمامة، أعاد المحاولــة كرتين مع مزيد من الحــرص والتركيز كي لا ينحرف عن خط ســيره لكنــه لم يفلح، ففطن إلى أن الســير على الخط المستقيم في الظلام مســتحيل، نظر في اتجاه البحر فلم يفرق بين السماء والأرض ولم يميز بين البر والبحر، لو لم يكن للنور من فائدة سوى

أن يجعل الإنسان يعرف بره وبحره ويرى سماءه وأرضه لكفى بها نعمة.

عاد «راغب» إلى مسكنه ودخل غرفته في هدوء حتى لا يوقظ زوجته، ولم يجد لديه الرغبة في النوم، فجلس علي كرسي أمامه مرآة كبيرة وبينه وبين المرآة السرير الذي تنام عليه زوجته وبجانبه مصباح صغير خافت الإضاءة، وبدأ ينقل بصره بين زوجته وصورته في المرآة عدة مرات متأملا، ثم قال محدثا صورته هامسا: هل تحبها؟

أجابه انعكاس صورته في المرآة: أجل.

- فلما تبحث عن الحب إذن؟
- لأنني لا أعرف ماهيته؟ ما حقيقته؟ ما سره؟
- كل الناس يعرفون الحب فلماذا تعقد الأمور؟
- لخصه لي في كلمة إن كان حقا ما تقول.
- .....
- أين فصاحتك يا صاح؟ يبدو أن ما بين الحاء والباء كما بين الكاف والنون، سر من أسرار الكون.
- الناس مفطورون على حب الجمال والإحسان، فكل من يرى في قرينته جمالاً أو يلمس منها إحساناً عاش معها على الحب.
- إذا كان الأمر كذلك فلما قال الفاروق رضي الله عنه: فإن أقل البيوت الذي يبنى على الحب، ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام، والإحسان؟
- قال هذا لأن بعض الناس يظنون أن الحب هو فقط ما كان بين قيس وليلى،

أو جميـل وبثينة، أو عنـتر عبلة، وما دون ذلك ليـس بحب، وليس هذا بصحيح، فالصور السـالفة هي الصور المتطرفة مـن الحب، التي وإن ملأت قلوب المحبين وامتلكت خيال العاشـقين وسرت بذكر أصحابها في العالمين فإنها أيضا قد أفسدت حياتهم وأذاقتهم الأمرين.

– تريد أن تقول أن أرسطو والفارابي وابن سينا كانوا فلاسفة وحكماء ولكن لا يعني هذا أن غيرهم هم الحمقى والبلهاء، وأن ابن الهيثم وابن حيان واينشتين كانوا من أفذاذ العلماء الأذكياء وليس كل من دونهم مجموعة من السفهاء والأغبياء، وبالتالـي فكل الناس محبين وإن لم يكونوا في درجة مشـاهير العاشـقين.

– نعم. هذا ما أردت وقصدت.

– لا. الحب يختلف، هؤلاء ساحتهم العقل والحب ميدانه القلب.

– أنت تراوغ. هذه القاعدة تنطبق على كافة الصفات الإنسـانية سـواء كانت عقليـة أو قلبية أو غريزية، كلها تظهر فيها الفروق الفردية ولا يغير ذلك من جوهرها شـيئا، فالرحمة على سـبيل المثال هي الرحمـة ولكنها مائة جـزء، وكل الخلائق تحيا في ظـل جزء واحد منها علـى درجات متباعدة وصـور متباينة منها العظمى كرحمة الرسـول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمته، ومنها الصغرى كرفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه.

– يا لك من مدلس، أين الثرى من الثريا؟ أين رحمة المصطفى بأمته من رحمة الدابة بولدها؟ أين حب «عنترة» لعبلته من حب راغب لزوجته؟

– المهم أن تحبها.

– إن كنـت تقصد تمني الخير لها والشـعور بالامتنان نحوها والحرص على

راحتهـا والاجتهاد في رعايتهـا ونحوه فكل ذلك يدخل في تعاشـر الناس بالحسنى، ولكن ليس هذا هو الحب الذي ابحث عنه، وليس هذا هو الحب الـذي نقرأ عنه في تراجم المحبين والعاشـقين لمحبوباتهـم أو أوطانهم أو آلهتهم.

– بـل أقصد ما هو أبعد من ذلك، أقصد بذل النفس من أجلها، أليس لدى كل واحد منا الاستعداد للتضحية بنفسه من أجل أهله؟

– بلـى، ولكـن ما يدريك أن ذلك بدافع من الحب وليس بدافع من الواجب أو الحمية أو الغيرة؟

– أيا كان الدافع أليست النتيجة واحدة؟ ما يضيرك أن تصل إلى أعلى درجات البذل والتضحية بدافع من الحب أو غيره من الدوافع طالما كانت تلك الدوافع معتبرة ومحمودة؟ إنما يبكي على الحب النساء.

– لا يـا صـاح.. بـل يبكـي علـى الحب كل إنسـان لـه من اسمـه عنوان، يبكـي علـى الحـب كل مـن يريـد أن يطلـق لروحـه العنـان، يبكـي علـى الحـب كل عبـد يبحـث عـن حـلاوة الإيمـان، يبكي علـى الحب كل مـن يرنـو إلى الجنـان، وكل مـن يريـد الوصـول إلى الرحمـن.

– وماذا تنوي أن تفعل يا حيران؟

– الخوض في بحور الحب عسى أن أنال اللؤلؤ والمرجان.

– إذا ابشر بالصعاب والأهوال.

– الله المستعان وعليه التكلان.

أدرك «راغب» الصباح، فسـكت عن الحوار والأفكار، وسمع صوت الأذان

يأتي من بعيد كأنه لحن الخلود ينســكب في أرجاء الوجود ليبعث فيه الحياة من جديد ويبشــره ببداية يوم جديد، وبعدمــا ردد الكلمات والدعوات أخرج مفكرته الصغيرة من جيبه وأخذ يراجع أسماء الحكماء الذين يرغب في الالتقاء بهم واختار أقربهم مسافة منه وأيسرهم وصولا إليه فوضع حول اسمه دائرة بالقلم ثم رفع المفكرة أمام ناظريه وأخذ ينظر إليها بإمعان حتى تلاشــت بقية الأسماء ولم يعد يرى ســوى الدائرة المحيطة بأول حكيم وقع عليه اختياره.. الحكيم السكندري.

شعر «راغب» بالارتياح والانشراح فأغلق المفكرة وقام للصلاة وقد عزم على زيارة الحكيم في أقرب وقت ممكن وأول فرصة متاحة.

* * *

الفصل الأول

الحكيم السكندري

يحكى أن شابا من أهل الإسكندرية أحب فتاة إغريقية، ولما حان أوان الوصال وركبت السفينة لتعبر البحر إليه، اصطدمت السفينة بالصخور في ظلمة الليل وغرقت قبل أن تصل إليه، فحزن عليها حزنا شديدا وأحب أن يخلّد ذكراها وأن يمنع غيرها من أن يلقى مصيرها فوضع تصميما لبناء شاهق يضيء للسفن في الظلام من مسافات بعيدة فيكون هداية للمسافرين ومرشدا للمبحرين ومؤنسا للعابرين ودليلا للضائعين ونورا للمستوحشين، فكانت منارة الإسكندرية التي أصبحت إحدى عجائب الدنيا السبع.

تلك القصة التي سمعها «راغب» من حكايات والدته صغيرا، لم يعرف لها أصلا ولم يجد لها مصدرا، ولكنه شغف بها ووجد فيها لونا بديعا من ألوان الوفاء للمحبوب، وصورة جميلة من صور استحالة الحب إلى خير يعم الشعوب.

* * *

«راغب» مخاطبا «الحكيم السكندري»: حدثني يا سيدي عن صور الحب وألوانه.

تجاهل «السكندري» طلبه وسكت برهة ثم قال: صف لي ما أمامك.

نظر «راغب» أمامه فلم يجد شيئا يمكن أن يصفه للحكيم فقال: لا أرى إلا البحر.

أشار «السكندري» برأسه وقال: صفه لي.

تذكر «راغب» الوصف المنسوب لعمرو بن العاص رضي الله عنه حين سأله الفاروق رضي الله عنه ليقرر أيحمل المسلمين فيه للجهاد أم لا؟، فأجابه: (يا أمير المؤمنين، إني رأيتُ خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركنَ خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قِلةً، والشك كثرةً، هم فيه كدودٍ على عودٍ، إن مال غرق، وإن نجا برق)، ثم قال في نفسه: ما أبعد موضوعنا عن الجهاد من ناحية وما أبعدني عن فصاحة الأقدمين من ناحية أخرى، ترى ماذا يريد الحكيم من وصف البحر؟ ثم قرر أن ينسى وصف من سبقه وأن ينظر وينتظر ما يفتح الله عليه به من وصفه، وبعد لحظات من التأمل قال:

جميل بديع رائع.. خطير عميق واسع.. غادر هادر كاسر.. لا تُعد أمواجه ولا تؤمن تقلباته.. من خاضه بغير سفينة غرق ومن لزم الشاطئ لم ينل الغرض.. مليء بالكنوز تسكنه الوحوش.. طهور لا يدنسه شيء.. تهطل عليه الأمطار وتصب فيه الأنهار ولا تنقص من ملوحته شيء.. بينه وبين

القمر سر وجلال وبينه وبين الشمس ود وجمال.. لا تنتهي أسراره ولا تسبر أغـواره.. منافعه كثيرة وبوائقه وفيرة.. فيه الموت وفيه الحياة.. وبه الهلاك وبه النجاة.

«السـكندري»: ها قد أجبت نفسك.. ما صور الحب وأشكاله إلا نحوا مما ذكرت.

«راغب» متعجبا: ولكني لم أكن أعرف أن الجواب عندي.

«السـكندري» كثير من الألغاز التي نبحث عن حلها خارجنا جدير بنا أن نفتش عن حل لها داخلنا.

«راغب»: هل يعني هذا أن ذواتنا هي مصدر علومنا؟

«السـكندري»: لا وإنما يعني أنها مسـتودع لكثير من المعارف والأسرار التي تلقى إلينا ونحن عنها غافلون.

«راغب»: تلقى إلينا من أين؟

«السـكندري»: من عوالم الله العظيم.. عشـرات الرسـائل بل ربما المئات تصلنا عبر الساعات ولا نستقبلها.

«راغـب» متفهمـا: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

«السكندري» مسترسـلا: آيات القرآن وآيات الأفاق وآيات النفوس ليست متباينة بل متطابقة.

«راغب»: كيف؟

«السكندري»: القرآن كتاب الله المسطور والكون كتاب الله المنظور والنفس كتاب الله المكنون، فما تقرأه من الوحي تراه حولك وتجده داخلك، أو إن شئت قلت تبصره ظاهرا وتدركه باطنا، فإذا قرأت قول الحق: (قل هو الله أحد) ثم نظرت إلى الآفاق شاهدت الأحدية واضحة ظاهرة فإذا فتشت داخلك وجدتها مستقرة باطنة، فعندما يطالبك القرآن بإعلانها والجهر بها فإنما يطالبك بأمر سمعته وشهدته وذقته.

«راغب»: لله در أبي العتاهية حين قال:

فيا عجبا كيف يعصي الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

«السكندري»: أتظنه أقرب إليك من حبل الوريد ثم لا يجيبك ولا يخاطبك، تعلم أن تنصت لكلام الحق داخلك وأن تميز بينه وبين وساوس النفس والشيطان، وتعلم أن تسأله عند الحاجة، ولا تظن أنك عقلك، فذاتك ليست عقلك وإنما هي ما وراء العقل، والعقل وسيلة فاستخدمها وأداة منحها الله لك وليس سيدا عليك، ثم أردف مدندنا:

دواؤك فيك وما تشعر ... وداؤك منك وما تُبصر
وتحسب أنّك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر
وأنت الكتاب المبين الذي ... بأحرفه يظهر المُضمَر
فلا حاجة لك في خارج ... يُخَبّر عنك بما سُطِّر

«راغب»: يا سـيدي إذا كان كل ما نطلبه داخلنا فما دور الأنبياء والعلماء والحكماء إذن؟

«السكندري»: دورهم أن يدلوك عليه ويرودوك إليه ويصلوك به.

«راغب»: على أي شيء يعود الضمير في عليه وإليه وبه؟

«السكندري» باسما: كل الاحتمالات التي دارت بخلدك قصدتها، وأضيف إليهـا أنه يعود على (كتابه أو كتابك المكنون) فهو كتابك باعتبار المحل وهو كتابـه باعتبار المصـدر، فكلا الضميرين المخاطب والغائـب صادقان، ولكن لا تنس أن الطهور شرط الوصول للكتاب المكنون.

«راغب»: نعم. (لا يمسـه إلا المطهرون)... عندما أجبت طلبك يا سـيدي بوصـف البحر لم أكن أعلم أن لدي الجواب، وعندما وجدت الجواب لم أعرف أنه إجابة سـؤالي عن وصف الحب، وعندما أخبرتني أجدني لست متأكدا هل هو الجواب الشافي الكافي؟

«السكندري»: اقرأ كتابك. كتابك الذي في داخلك، هل تجد جوابا ثانيا؟

«راغب»: نعم أشعر أن هناك جوابا ثانيا وثالثا ورابعا، وأن أوجه التشابه بـين الحب والبحر متعـددة، وأن ألوان الحب وصوره وأشـكاله قد تلتقي مع البحر وقد تلتقي مع غيره.

«السـكندري»: ها قد أجبت نفسـك نزلة أخرى، فمـا تحصل لك في المرة الأولى الجواب الابتدائي وليس الجواب الكافي.

«راغـب»: إنما تحصل لي يا سـيدي مزيد حيرة، ولسـت أدري أي ألوان الحب أرجى عندي ولا أي صوره أنسب لي؟

«السـكندري»: أنت لا تختار لونا منـه ولا صورة له، بل هو الذي يختار لك.

«راغب»: وعلى أي أساس سيختار السيد المطاع؟

«السكندري»: قالوا فيما قالوا إن العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، فالحب أولى بذلك.

«راغب»: كنت أحسب أن الحب عطاء بلا مقابل.

«السـكندري»: هذا بعد أن يأتي أما قبل ذلك فـلا بد من تقديم القرابين، انظر إلى حب الأم لولدها كيف يملأ قلبها لحظة تبصره عينها فتنسـى متاعب الحمل وآلام المخاض، ولكن قبل هذه اللحظة يعتصرها الألم ولا يصبرها سوى الأمل.

«راغب»: وماذا عن حب الأب لابنه؟ لماذا لا تسبقه تلك المعاناة؟

«السكندري»: ألم أقل لك إن الخيار له وليس لك، فالحب الأبوي له صورة أخرى ولون مختلف عن الحب الأمومي.

«راغب»: فرق لي بينهما يا سيدي.

«السـكندري»: حب الأم مطلق، إنه شـامِل لكل الحماية، ومستحوذ على كل المحيط. ولما كانت الأم تحب أطفالَها لأنهم أطفالها، وليس لأنهم مطيعون

أو «طيبون» أو يحققون رغباتها وأوامرها، فإن حب الأم هنا قائم على المساواة. كل الأبناء متساوون لأنهم جميعًا أطفالها.

أشار السكندري بيده إلى البحر وأكمل قائلا: كهذا البحر يعطي أسماكه لكل طالب سواء منهم من ألقى فيه بالمجوهرات أو النجاسات، أما الحب الأبوي فطبيعته أنه يضع مطالِب ويؤسِّس مبادئ وقوانين، ويرتبط بالأمر والنهي والثواب والعقاب، ومن هنا يبدأ التمايز بين الأبناء.

«راغب»: وهكذا يمكن القول أن حب الأم مناسب لمرحلة الفطرة التي يتساوى فيها الخلق جميعا (كل مولود يولد على الفطرة)، والحب الأبوي مناسب لمرحلة التنشئة التي يتمايز فيها الأطفال، ويكلفون ببعض الواجبات.

«السكندري»: نعم لكني لم أقصد هذا، إنما قصدت أن تدرك أن حب الله لا يمكن أن ينفصل عن حب الإنسان لوالديه، فمن حب الأم نتعلم حب الرحمة والفضل ومن حب الأب نتعلم حب الحق والعدل، وأسماء الله وصفاته تشتمل على النوعين في امتزاج عجيب، فإن ذكرت العزيز الرحيم، وجدت «العزة» في الحب الأبوي و«الرحمة» في الحب الأمومي، وإن قلت الحميد المجيد، لم يخف عليك التناسب بين «الحمد» والأمومة، وبين «المجد» والأبوة، باختصار تستطيع أن تقول أن «الأب» تتجلى فيه صفات «الجلال» و«الأم» مستقر تجليات صفات «الجمال».

«راغب»: ولذلك اختار الرسول ﷺ رحمة الأم ليضرب لنا بها مثلا يقربنا من فهم رحمة الله في قصة المرأة التي ضاع ولدها فانطلقت تبحث

عنه في لوعــة جارفة ولهفة فائقة حتى إذا وجدته أخذته وألصقته بصدرها، لله أرحم بعباده من هذه بولدها.

«السكندري»: فما تقول في قوله: « ورحمتي سبقت غضبي»؟

ســكت «راغب» برهة ثم انتبه فجأة لمقصد الحكيم وشعر كأن طاقة من نور فتحت أمام بصيرته فهتف: الله أكبر.. الله أكبر.. غلب الجمال الجلال.. غلب الجمال الجلال.

انتظر «السكندري» برهة حتى يعود جليسه إلى حاله الأولى ثم سأله: هل يكفي حب الوالدين في الوصول إلى حب رب العالمين؟

«راغــب» بعد لحظات من التفكير: هل حــب الوالدين يحوي جميع ألوان الحب وصوره وأشكاله؟

«السكندري»: لا تجب السؤال بسؤال.

«راغب»: إذاً.. لا.. لا يكفي.

«الســكندري»: لابــد إذا مــن حب النــاس أجمعين لتصل لحب أحســن الخالقين، أليس كذلك؟

«راغب»: بلى.

«السكندري»: لا.

«راغب»: لمَ؟

«السكندري»: لا بد من حلقة وصل.. لا بد من واسطة.. لا بد من وسيلة.. لا بد بين الشمس والأرض من قمر.. لا بد من مرآة ينعكس فيها الحب فيتجلى.

«راغب»: وما هي؟

« السكندري»: بل قل من هو؟

«راغب» مردداً في تعجب: من هو؟

«السكندري»: الحبيب الأعظم، والمحب الأكبر، والمحبوب المبجل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القائل: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين.

«راغب»: هذا يتطلب أن أحب من في الأرض جميعا أولاً !

«السكندري»: هذا يا ولدي يتطلب أن تحب الماضي والمستقبل والحاضر، هذا يتطلب أن تحب من هو فوقك ومن هو دونك ومن هو ندك، هذا يتطلب أن تعرف حب الاحترام والتبجيل وحب الشفقة والرحمة وحب الإخاء والمودة، وبعد ذلك تحبه أكثر من كل ذلك.

«راغب» في يأس: جئتك يا سيدي لتدلني على حب واحد يسد ثغرة قلبي ويملأ فراغ روحي ويجعل لحياتي معنى، فإذا بي مطالب بحب من مات قبلي ومن سار جنبي ومن جاء بعدي ! أي ماضٍ تقصده يا سيدي؟ الماضي الذي يخصني أم الذي يخص عشيرتي أم الذي يخص بلدي أم أمتي؟ وكذلك الشأن بالنسبة للحاضر والمستقبل؟ الخلاصة أنني يجب أن أحب مليارات البشر من السابقين واللاحقين !

«السكندري»: لا تحزن إذا أخبرتك أن كل هذا لا يكفيك، فما هؤلاء جميعا إلا عـالم واحد من العالمين، وأنت تطلـب رب العالمين، ألا يجدر بك أن تحب العـوالم كلها أولا ثم تطلب حب ربهـا؟ إن أحببت عالم الإنس فما موقفك من عالم الجن والملائكة؟ وما شعورك تجاه عالم النباتات والحيوانات والجمادات؟ وكيف تنظر إلى عالم الغيب والشهادة؟

«راغب»: لا لن أحزن يا سيدي، سأقنط فقط وربما انتحر.

«السـكندري» باسما: لقد دللتك على حب واحد كما طلبت ولكنك أغرقت نفسـك في بحر التفاصيل، أرشدتك إلى العروة الوثقى والطريقة المثلى والوسيلة العظمى والبدر الأنور والباب الأوحد، أول الخلق وأفضلهم و أكرمهم وأرحمهم وسـيدهم خير الخلق كلهم، إن أحببته أحببت فيه العوالم كلها، وإن أحببت العـوالم كلها أوصلتـك إلى حبه، انظـر لعلاقته بأمته عـبر الماضي والحاضر والمسـتقبل، أنظر لارتباطه بعالم الإنـس والجن والملائكة، لاحظ صلاته بعالم الغيب والشهادة، استحضر تعاطيه مع عوالم النباتات والحيوانات والجمادات.

«راغب» مدندنا:

و مبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

مولاي صل وسلم دائما أبدا على حبيبك خير الخلق كلهم

ثم أردف: طالما أنك من بلدة الإمام البوصيري يا سيدي فلابد أن تقول هذا، وهذا الذي قلته يا سيدي أعتقده وأعتنقه لكني لا أحسه ولا أشعر به، يعني لا أستطيع نقله من رأسي إلى صدري، ولا أجد له قناة من عقلي إلى قلبي.

«السكندري»: أنعتقد ما نشعر أم نشعر ما نعتقد؟

«راغب»: أنا عن نفسي اعتقد ما لا أشعر به وأشعر بما لا أعتقد فيه، فعلى سبيل المثال أعتقد بوجود الحب ولكني لا أشعر به، وأشعر بالخوف في الأماكن الموحشة المظلمة رغم اعتقادي بعدم وجود الخطر فيها.

«السكندري»: ولعلك أيضا تعتقد بوجود الظلم وتشعر به إذا وقع، وتشعر بالرحمة وتعتقد بلا شك في وجودها، أليس كذلك؟

«راغب»: بلى.

«السكندري»: إذاً فالاحتمالات الأربعة قائمة، والتلازم الزمني بين الإدراك والعاطفة ليس لازما، فقد تشعر غدا بما أدركته بالأمس، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم، وعندها تدرك أنك لم تدرك ما ظننت أنك تدركه.

«راغب»: أوَ وارد هذا؟

«السكندري»: نعم كما حدث للفاروق رضي الله عنه بعد انتقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما سمع الصديق رضي الله عنه يتلو قوله تعالى: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل.. الآية) فأدركها بغير ما أدركها به من قبل وشعر كأنها انزلت الساعة.

«راغب»: إذاً فما زال الأمل حاضرا، فحدثني عن صور الحب الأخرى ربما أدركها اليوم وأحسها غدا.

«السكندري»: عن أي الصور تريد أن نتحدث؟

«راغب»: حدثتني يا سيدي عن الحب الأم والحب الأبوي، فحدثني عن حب الزوجة والحب الأخوي.

«السكندري»: الحب الأخوي يتضمن جميع أنواع الحب، والمقصود به الشعور بالمسؤولية والرعايَة والاحترام والمعرفة والرحمة إزاء أي كائن إنساني آخَر، والرغبة في نفعه وتمني الخير له... الحب الأخَوي هو حب لكل البشَر الآخَرين، وهو بدهي بطبيعة المنشأ (هو الذي خلقكم من نفس واحدة)، ففيه توجد تجربة الاتحاد بكل الناس، توجد تجربة التضامُن الإنساني، حيث يقوم الحب الأخوي على تجربة أننا جميعًا واحد.

«راغب»: هذا الكلام النظري يا سيدي الذي يتغنى به أصحاب الملل والنحل المختلفة يناقضه تاريخ الصراع البشري منذ بدء الخليقة، فأول جريمة قتل كانت قتل أخ لأخيه.

«السكندري»: الاستثناء يثبت القاعدة ولا ينفيها.

«الراغب»: أي استثناء يا سيدي؟ أنا أحدثك عن تاريخ البشر منذ ابني آدم وحتى يومنا هذا.

«السكندري»: هذا لأن التاريخ فيه آفة الإعلام، تعلم المثال الشهير لاهتمام وسائل الإعلام بالرجل الذي عض الكلب وتجاهلها التام لألاف البشر الذين عقرتهم الكلاب، أفتظن أن التاريخ سيسجل لنا أخبار التعارف والوئام بين الشعوب والقبائل والأفراد أم أخبار التصارع والاقتتال؟

«الراغب»: والسيرة أليست جزءً من التاريخ؟ أفتندرج تحت هذه القاعدة؟

«السكندري»: بلى السيرة جزء من التاريخ، لكنها لا تندرج تحت هذه القاعدة لخلوها من تلك الآفة، فكتاب السيرة والسنن نقلوا لنا حياة سيد البشر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كاملة ولم يقتصروا على جوانب أو لمحات منها، وهذا ما لم يتوافر لأي شخصية تاريخية أخرى، لسبب بسيط هو أنه المثل الأعلى والأسوة الحسنة، ولذلك وجدوا الكمال والجمال في شخصية خير الأنام يغطيان كافة الجوانب ويبرزان في أدق التفاصيل، ومما نقلوه لنا: كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي دُبُرِ صَلَاتِهِ: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، أَنَا شَهِيدٌ أَنَّكَ أَنْتَ الرَّبُّ وَحْدَكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، أَنَا شَهِيدٌ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، أَنَا شَهِيدٌ أَنَّ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ إِخْوَةٌ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، اجْعَلْنِي مُخْلِصًا لَكَ وَأَهْلِي فِي كُلِّ سَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، اسْمَعْ وَاسْتَجِبْ، اللَّهُ الْأَكْبَرُ الْأَكْبَرُ، اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، اللَّهُ الْأَكْبَرُ الْأَكْبَرُ، حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، اللَّهُ الْأَكْبَرُ الْأَكْبَرُ».

ألا تجد في هذا الدعاء إشارة إلى الحب الأخوي الذي تنكره؟

«الراغب»: لا أنكره ولكن أتعجب من ندرة وجوده مع كثرة مدعيه.

«السكندري»: وجوده مترتبط بوجود الإنسان، فحيثما وجد الناس وجد الحب الأخوي بينهم.

«الراغب»: فلماذا نرى الناس من كل حدب ينسلون ولا نراه معهم يقوم حيث قاموا ولا يدور حيث داروا؟

«السكندري»: لأن أكثر الناس لا يعقلون ولا يذكرون ولا يعلمون ولا يشكرون، ولذلك كان وجوده مؤشراً لنسبة الإنسانية في البشر.

«الراغب»: وطالما أن المؤشر منخفض فهذا معناه أن أكثر البشر ليسوا أناساً، الآن أدركت ماذا كان يقصد جدي رحمه الله بقوله الذي كان يكرره كثيراً: يا بني هناك ناس أولاد ناس وهناك ناس أولاد كلب.

حك «راغب» رأسه كأنما يحرك الأفكار فيها ثم أضاف: فما بال الكل إذا ذكر هذا اللون من الحب يدعيه ويحرص على إثبات أنه فيه؟

«السكندري»: ليثبت لنفسه أنه مازال يحتفظ بإنسانيته، ولكنه في الواقع يقصره على طائفته أو عرقه أو ملته، وهذا ما أشار إليه رحمة الله للعالمين، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَضَعُ اللَّهُ رَحْمَتَهُ إِلَّا عَلَى رَحِيمٍ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُلُّنَا يَرْحَمُ، قَالَ: «لَيْسَ بِرَحْمَةِ أَحَدِكُمْ فِي خَاصَّةِ صَاحِبِهِ حَتَّى يَرْحَمَ النَّاسَ كَافَّةً» وفي رواية: قَالَ: «لَيْسَ بِرَحْمَةِ أَحَدِكُمْ صَاحِبَهُ يَرْحَمُ النَّاسُ كَافَّةً».. فالمقصد أن تعم الرحمة الناس كافة.

«الراغب»: ولكن الآيات والأحاديث في وصف وإثبات الأخوة بين المسلمين أو المؤمنين دون غيرهم مكرورة ومشهورة.

«السكندري»: أنت تتحدث عن الأخوة الخاصة وأنا أحدثك عن الأخوة العامة، فكلنا لآدم وآدم من تراب، ولا يمكن أن تتحقق الإخوة بين المؤمنين قبل أن يحققوا الأخوة بينهم وبين العالمين، فكيف تصل إلى الأعلى ولما تكمل

الأدنى، ألا تتأسى بالرحمة المهداة؟ ألا تتعلم من ربك الذي يرحم المؤمن والكافر ثم يخص المؤمنين برحمة أخرى لأنه الرحمن الرحيم، ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحمة للعالمين ولكنه بالإضافة إلى ذلك بالمؤمنين رءوف رحيم.

أطرق «السكندري» برهة ثم رفع رأسه وقال: أليس للجار الكافر حق وللجار المسلم حقان وللجار ذي القربى ثلاثة حقوق؟ فلما تريد أن تحرم غير المسلمين حق الإخاء الأول؟

«راغب»: معاذ الله يا مولانا لا أريد أن أحرم أحدا شيئاً ولكني أريد أن أفهم، فما بال البغض في الله؟ ألسنا مطالبين به أيضا؟

«السكندري»: لا شك أن كل إيمان مطلوب أمامه كفر مقصود، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى، وكذلك كل حب منشود يعادله ويكمله بغض مطلوب، وكل رحمة مبذولة تتطلب شدة مرصودة كما في الطبيب الرحيم بالمريض الشديد على المرض، وهذا المعنى لابد أنه مر عليك في كتب التزكية وفي كلام الأولياء عن بغض المعصية وحب العاصين، بل لعلك تدرك أن من العاصين من يحب رب العالمين.

«راغب»: لعلك تشير يا سيدي إلى قصة شارب الخمر الذي شهد له الحبيب بحب الله وحب رسوله؟

«السكندري»: نعم.

«راغب»: وهل يجتمع الحب والمعصية؟ ألم تقل السيدة رابعة:

تعصي الإله وتزعم حبه هذا لعمري في القياس شنيع

لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

فمتى يلتقي الحب والمعصية ومتى يفترقان؟

«السكندري»: الحب يا ولدي درجات ومراتب، والمعصية تطعن في كمال الحب لا في أصله، والمرء المحب قد يبتلى بالمعصية ويرجو المعافاة ولو ببذل الغالي والنفيس، أما من تمكن الحب من قلبه فلا تجد المعصية فيه مكاناً فلا تخطر عليه ولا يفكر فيها، وإن فاجأته رأى برهان ربه، ويبقى قدر الله غالب، كما سئل: الجنيد رحمه الله: أيزني الولي؟ فأجاب بقوله: وكان أمر الله قدرا مقدورا، كثير من الناس اليوم يستشنعون هذه الإجابة ويفوتهم أن أدنى الصحابة منزلة هو أفضل من أعلى الأولياء مرتبة، وقصة ماعز والغامدية حجة للجنيد قوية.

«راغب»: المعصية المرتبطة بالضعف يمكن التعاطف مع صاحبها وتحقيق معادلة حب مرتكبها وكراهتها، أما المعصية التي تنعكس فيها تجليات الشر في الكون وما يصاحبها من القهر والعدوان والظلم والإفساد التي يرتكبها ذئاب البشر وحثالتهم فأنى يتسع الحب الأخوي لهؤلاء ذوي الشر المطلق؟

«السكندري»: لا يوجد شر مطلق، الشر النسبي موجود وأقصد بالشر النسبي ما ظاهره شر وباطنه خير، حتى الشيطان ليس شرا مطلقا تخيل لو لم يوجد الشيطان كم من آيات القرآن الكريم وما تحتويه من المعاني كنا سنفتقد، ولو كان الشيطان شرا مطلقا لاستحق العبادة لأنه على البشر في هذه الحالة أن يعبدوا الله طلبا لخيره ويعبدوا الشيطان اتقاء لشره، وهذه الازدواجية موجودة في بعض الديانات القديمة وموجودة إلى حد ما في الغرب حاليا فيجعلون من

الشيطان ندا لله في القدرة والقوة ولكن في جانب الشر، منشأ الشر مرتبط بنعمة الإرادة والاختيار والمعرفة يعني يمكنك اعتباره الأثر الجانبي لدواء الحرية أو ضريبة الإرادة والاختيار، وهو أيضا مرتبط بحكمة الابتلاء التي بنيت عليها الحياة الدنيا وبالتالي يمكنك أيضا اعتباره ضريبة العبور إلى الآخرة وفيها سيتضح الوزن النسبي الحقيقي للشر فكل من تعرض للظلم والعذاب والبلايا والرزايا في الدنيا بعدها بسنوات تتحول هذه الأحداث لمادة للاعتبار أو الدراسة أو حتى التندر والتفكه، وهي مهما طالت تمثل نسبة محدودة من عمر الإنسان الدنيوي، فما بالك بنسبتها لعمر الإنسان الأخروي الخالد ولذلك جاء في الحديث أن أشقى أهل الأرض عندما يغمس في الجنة غمسة واحدة ينسى كل ما مر به من الشقاء في الدنيا ويقسم أنه في النعيم منذ خلقه الله، ومع ذلك الشر أصيل في النفس البشرية في الدنيا وليس طارئا عليها، فكل تصرفات النفس البشرية مبنية على ما ألهمها الله من الفجور والتقوى ولاحظ أن الفجور مقدم على التقوى ولذلك كانت النفس البشرية في حاجة مستمرة إلى التزكية لتغليب التقوى على الفجور.

«راغب»: كنت أحسب أن الأصل في الإنسان الخير، أليس كل مولود يولد على الفطرة؟

«السكندري»: بلى هذا من الناحية الاعتقادية الأصل فيها التوحيد وليس الشرك والفطرة في الإنسان الإسلام لا الكفر ولذلك لا يوجد أي دافع داخلي للإلحاد أو الشرك لأن كل إنسان لو فتش في نفسه أو في الكون فلن يجد سوى إله واحد يخاطبه بآياته دون منازع، وعليه فالإلحاد غباء ومغالطة للفطرة

والشــرك تناقض يســتحيل معه المنطق أو الإدراك لأنه طالما آمنت أن هناك إله قادر رازق مدبر حكيم فوجود أي شــريك معه هــو اتهام له بالعجز وبالتالي اســقاط اســتحقاق العبادة عنه، أما من الناحية الســلوكية فمــا ذكرت لك من اجتماع الأصلين وتقديم الفجور على التقوى.

«راغب»: هذا يفسر وجود الخير والشر في المسلمين وغير المسلمين.

«الســكندري»: وصف غير المســلمين بالخير يندرج تحت قاعدة خياركم في الجاهلية خياركم في الإســلام إذا فقهوا، وكل من لم تصله الدعوة أو وصلته بطريقة مشوهة يدخل تحت قاعدة وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ويعتبر مــن أهل الفترة، وهذا يعــني أن الجنة قد تحتوي أعدادا هائلة ممن يعدون في الدنيا كفارا.

«راغــب»: الآن أدركت لماذا أصبحت خطبة الجمعة عبءً كبيراً على كثير من المســلمين، لأنها في الغالب الأعم تتبنى خطابــاً لا يعزز الحب الأخوي لا على المستوى الإنساني ولا حتى على المستوى الإسلامي.

«السكندري»: الخطاب الذي احبذه لخطبة الجمعة هو الخطاب الكوني أو الأممي، الأول يسع العالين فيقبله المسلمون وغير المسلمين، والثاني يسع الأمة بأسرها فيقبله الشيعي والسني، ولا ينفر منه الصوفي والسلفي.

«راغب»: بهذا يا ســيدي لن تخرج خطب الجمعــة عن إطار الحديث عن مكارم الأخلاق وفضائل مكة والمدينة.

«السـكندري»: غير صحيح، الأطر المتاحـة لهذا النوع من الخطاب كثيرة وواسعة، ولكن الأزمة في الخطباء.

«راغـب»: وحتى لو توافر هؤلاء الخطباء لـن تعدم من يرفض وينفر ومن يطعن ويقدح في هذا الخطاب الأخوي الكوني الأممي.

«السكندري»: نعم ولكن هذا لا يعني أن هذا النوع من الخطاب معيب وإنما يعني أن العيب منهم، كما قال صاحب البردة:

لا تعجبن لحسودٍ راح ينكرها تجاهلاً وهو عين الحاذق الفهم

قد تنكر العين ضوء الشـمس من رمد وينكر الفم طعم الماءِ من سـقم و ما أن سمع «راغب» البيتين حتى شارك «الحكيم» ترنمه، فقال معه:

مولاي صلـي وسـلم دائماً أبـدا علـى حبيبك خير الخلق كلهم

ثم أستأنف «السكندري» قائلا: إذا لم تكن خطبة الجمعة مجمعة لا مفرقة فكيف يظن الإمام والمأموم أنهم قد أدوا الفريضة ! لست أدري لماذا يصر المصلون على جعل جمعتهم مجمعة للأبدان مفرقة للقلوب؟

«راغب»: أترانا يا سـيدي لو التزمنا بهذا النوع من الخطاب في الجمعات والأعياد سيرتفع الخلاف وتختفي الشحناء، ويحل الوئام والإخاء؟

«السـكندري»: أتفهم أن الخلاف قد لا ينحسـم في الدنيا أبداً، ولكن هل يعني هذا أنه لا مناص مما يترتب عليه من المآسي؟ ولا مجال لتقليص دائرته التي لا تكف عن الاتساع بمرور الأجيال؟

ثــم أردف مجيبا على الســؤال الذي طرحه: أحســب أن الأمرين كليهما قابلــين للتحقيــق – تجــاوز الحالقة أي فســاد ذات البين الــتي تحلق الدين وتقليص الدائرة أي دائرة الشــقاق– ولكنهما يتطلبــان أرضية نادرة الوجود في هــذا الزمان، إذا وقفت الأمة عليها أدركــت المراد: وحدة الظاهر وسماحة الباطن، فلن يصوم المسلمون في يوم واحد حتى يكونوا أمة واحدة لها مرجعية ظاهرة، ولن تَصْفُ النفوس حتى تتسع لتاريخ وتراث المسلمين كلهم لا لتاريخ طائفــة منهــم أو تراث فئة منهــم. يظن البعض أن ابن عربــي بعيد كل البعد عن نهر الــتراث، ويظن أخرون أن ابن تيمية خارج كل الخروج عن محيطه، والحق أن التراث لا يكتمل إلا بهما.

«راغب»: ليس لدي غضاضة في تصور الحب الأخوي على المســتوى الفكري ولا أجــد تناقضا بين احترام النتــاج الفكري لابن تيمية ولابن عربي، بل أظن أن ابن تيمية نفسه أثنى على بعض ما كتبه ابن عربي وذم بعضه مما يدل على إمكانية وجود مساحات مشــتركة بينهما وأنهما ليس على طرفي النقيض كما يظن البعض، وبحر الحب الأخوي يتســع لكليهما، لكن الغضاضة عندي على المســتوى السلوكي فما زلت لا أســتطيع التعاطف مع المجرمين والمفسدين ولا أرى البحر يسعهم أبدا.

نظر «الســكندري» نظرة ثاقبة لـ «راغب» شــعر أنها تنفذ إلى بقعة عميقة في كيانه لم يبلغها هو نفسه من قبل ثم قال: تعلم قصة الرجل الذي قتل مائة نفس، أليس كذلك؟

أومـأ «راغب» برأسـه أن بلى، فأكمل «السـكندري» قائلا: عندما سمعت هذه القصة للمرة الأولى ألم تشعر بالتعاطف معه، وتمنيت أن تفوز به ملائكة الرحمة لا ملائكة العذاب؟

أومأ «راغب» مرة أخرى بالإيجاب.

«السكندري»: لما؟ لمَ رجوت له الرحمة وقد قتل مائة نفس؟

«راغب»: لأنه جاء تائبا مقبلا بقلبه على الله.

«السـكندري»: أي أنك تبنيت منطق ملائكة الرحمة، فماذا لو أدخلت في دائرة اعتباراتك ضحايـا إجرام ذلك الرجل، الأنفس التي أزهقت بغير حق، لعل منهم من قتله شـنقا أو طعنا أو حرقا أو غرقا أو سـحلا أو دهسـا، وربما منهم من قتله أمام ابنه أو ابنته، وقد يكون منهم من له أبوين شيخين كبيرين في أمس الحاجة إليه، فانظر كم من القلوب دميت وكم من الظهور قصمت وكم من الكواهـل أثقلت وكم من الأرواح اعتصرت، وانصـت إلى صرخات اليتامى ونشـيج الأرامل ونحيب الأمهات الثكالى وزفـرات الآباء المكلومين، أما زلت عند رأيك؟

شـعر «راغب» بغصة في حلقه وحرقة في قلبه وهو يسـتحضر كم الأحزان والمآسـي الذي تسـبب فيه هذا الرجل، ومقدار الظلم والقهر والكمد الذي وقع علـى ضحاياه وذويهم فابتلع ريقه بصعوبة ثم قال: بل أجدني الآن أكثر ميلا لمنطق ملائكة العذاب، فهو لم يفعل خيرا قط.

«السكندري»: القصة لم تتغير فما الذي غير اتجاهك؟

«راغـب»: زاوية الرؤية، كنـت أراها من وجه نظر القاتل وأضع نفسـي مكانه، فأصبحت أراها من وجهة نظر المقتول وأضع نفسي مكانه ومكان ذويه.

«السـكندري»: الحـب الأخوي مبـني على قاعدة حـب لأخيك ما تحب لنفسـك، ولذلـك عندما أدخلت الرجـل في تلك الدائرة قدمـت اعتبار التوبة والاقبـال على الله علـى الاعتبارات الأخرى وشـعرت بالتعاطف معه وعندما أخرجته منها رأيته بغير العين الأولى.

«راغب»: وضحاياه ألا يستحقون أيضا أن أحب لهم ما أحب لنفسي؟

«السـكندري»: كلما اتسـع علمك اتسـع حلمك، وكلما اتسع صدرك اتسع بحـرك، انظر الآن من الزاويتين معا، وضع نفسـك مكان الطرفين، وتعلم من مدعي النبوة طليحة بن خويلد بعدما أسـلم، ثُمَّ خَرَجَ مُحْرِمًا بِالْحَجِّ، فَقَدِمَ فِي خِلافَةِ عُمَرَ مَكَّةَ، فَلَمَّا رَآهُ عُمَرُ، قَالَ: يَا طُلَيْحَةُ، لا أُحِبُّكَ بَعْدَ قَتْلِكَ الرَّجُلَيْنِ الصَّالِحَيْنِ عُكَّاشَـةَ وَثَابِتِ بْنِ أَقْرَمَ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رَجُلَيْنِ أَكْرَمَهُمَا اللَّهُ بِيَـدَيَّ، وَلَمْ يُهِنِّي بِأَيْدِيهِمَا، وَمَا كُلُّ الْبُيُوتِ تَنْبُـتُ عَلَى الْحُبِّ وَلَكِنْ صَفْحَةٌ جَمِيلَةٌ، فَإِنَّ النَّاسَ يَتَصَافَحُونَ عَلَى السِّنَانِ.

«راغب»: أيتطلب الحب الأخوي أن أحب الطغاة والسـفاحين؟ أيتطلب أن أحب أمثال ستالين وموسوليني وشارون؟

«السـكندري»: لا.. لا يتطلب هذا.. كل ما في الأمر أن عليك أن تفرق بين المجرم حال تماديه في غيه وحال رجوعه إلى الجادة، وأن تضع في الاعتبار أن الله يغير الأحوال بين عشية وضحاها، ألم يكن عمر بن الخطاب وعمرو بن هشام

من أشد الكفار على الإسلام؟ فلما أصاب دعاء الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحدهما ولم يصب الأخر، أصبح الأول فاروق هذه الأمة وأضحى الثاني فرعونها.

«راغب»: يعني أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما.

«السكندري»: نعم فالحب الأخوي لا يقتضي أن تحب المجرمين ولكن يتطلب أن تكون لديك القابلية لحبهم إذا تابوا عن إجرامهم.

«راغب»: فما سمات هذا النوع من الحب يا سيدي؟

«السكندري»: الشوق والأنس، والاحترام والتعاون، والحلم والوقار، والأخذ والعطاء، وتآلف الأرواح وتلاقح الأفكار، وتبادل الخبرات وتجاوز العثرات، ورفع الكلفة.

«راغب»: حسبت أن الإخاء قائم على الإيثار فلا مجال للأخذ فيه.

«السكندري»: الإخاء قائم على التفاعل وهذا أروع ما فيه، فالمؤاخاة تخرج منك أعمق الأفكار وأزكى المشاعر وأرقى التصرفات، بمجرد المجالسة والتزاور والتعامل الطبيعي مع الأخ أو الصديق، وهذا ما تناله منه أن تتعرف داخلك على أفكار عميقة وتتذوق مشاعر رقيقة وتسلك مسالك دقيقة وكل منها له حلاوة وأعلاها من وجدها ذاق حلاوة الإيمان.

«راغب»: وهكذا يتدرج الإنسان في مدراج الحب مذ يولد، ويتنقل بين ألوانه وأشكاله، فمن حب الأم يتذوق الرحمة والفضل، ومن حب الأب يتعرف

على الحق والعدل، ومن الحب الأخوي يتنعم بالأنس والصدق، فماذا عن حب الأزواج؟ ما له وما فيه؟

«السكندري»: تسأل عن حب الأزواج أم حب الرجال للنساء؟

فكر «راغب» قليلاً ثم قال: عن كليهما أسأل يا سيدي.

«السكندري»: أنحب ما نشتهي أم نشتهي ما نحب؟

«راغب»: أنا أعرف الشهوة يا سيدي ولا أعرف الحب، فكيف أفرق بينهما؟

«السكندري» مشيرا إلى الشمس: دعنا نودع الضياء وهو يجري إلى مستقره ثم نصلي بجوار صاحب البردة فمسجده ليس ببعيد، ثم استضيفك في بيتي المتواضع لنكمل الحوار ونجيب السؤال.

راقب «راغب» و«الحكيم» ذلك المنظر المهيب الذي يلخص حقيقة الظاهر والباطن فما تراه ببصرك من غرق الشمس في اليم تدرك ببصيرتك أنه ضرب من المستحيل، والفصل بين الليل والنهار بهذا المشهد البديع الذي يتكور فيه الليل على النهار والنهار على الليل أبلغ تصوير للتكامل والتقابل بين جنسي البشر، فما أشبه المرأة بالليل والرجل بالنهار، المرأة بسكونها وسحرها ورقة نجومها والرجل بكده وسعيه وقوة إشراقه.

وصل الرفيقان إلى المسجد بعد أن فرغ الناس من صلاتهم فصليا معا في جماعة ثانية وقرأ «السكندري»: (و الليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما

خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى..) وعندما فرغا من صلاتهما تناهى إلى سمعيهما أبيات لصاحب البردة تنبعث من حلقة في احدى زوايا المسجد:

فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها

إن الطعام يقوي شهوة النَّهم

والنفس كالطفل إن تهملهُ شبَّ على

حب الرضاعِ وإن تفطمهُ ينفطمِ

فاصرف هواها وحاذر أن توليه

إن الهوى ما تولى يصم أو يصمِ

جلس الرفيقان في شرفة منزل الحكيم المطلة على الشاطئ، وأشعل المضيف مصباحا على الطاولة وتناول باليد الأخرى كتابا من وسط عدة كتب كانت عليها وقال لضيفه:

هذا كتاب بعنوان «عصر القرود» للدكتور مصطفى محمود رحمه الله، سأقرأ لك منه بعض الفقرات تتناول طرفا مما كنا نناقشه ثم نكمل حوارنا إن شاء الله.

«راغب»: على الرحب والسعة.

استبدل الحكيم نظارات القراءة بنظارات المسافات ثم أخذ في القراءة بصوت عميق هادئ، فقرأ ما يلي:

عند بعض الناس الحب هو الشـهوة عينهـا، لأنهم يرون دائما أن حبهم للمرأة يتداعى إلى اشتهائها، ولأنهم يرون أن الحب والشهوة يلتقيان في لحظة الجنس فيذوبان في سـبيكة واحدة وكأنهما معدن واحد ذو وجهين، كل وجه يقتضـي الآخر بالضرورة، وقد رأينا كثيرا مـن المفكرين الماديين يقولون نفس الكلام، ورأينـا رجلا مثل فرويد يقول: بأن الحب يخرج من ينبوع الجنس، بل إنه عين ذلك الينبوع.. والفكرة خاطئة وهناك التباس. وقد نشـأ الالتباس من هـذه اللحظة التي يتداعـى فيها حب الرجل للمرأة إلى الشـهوة.. لحظة تـذوب الحوافز وتتداخـل الدوافع ويلتقي النزوع العاطفـي بالنزوع الغريزي البهيمـي، في ذلك العناق الملتهب الذي يهدف إلى الانجاب والتكاثر. ونسـوا أنها لحظة خاطفة لا تلبث أن تنتهي بانتهاء غرضها، وتعود الحوافز فتفترق ويمضـي كل منها إلى طريق مضاد، النزوع العاطفـي الذي حركه الجمال نراه يتجاوز نقطة الشـهوة ويتخطاها في صعود إيجابي، وخطى خلاقة نحو المودة والرحمـة والتحرر النفسـي والانعتاق من الظلمـة البهيمية، ونحو الانطلاق مـن ربقة الغريـزة إلى أفق العقل والوجدان والصداقـة العميقة.. في حين نرى النزوع الشـهواني ينزل إلى طريق عكسي هابط ماضيا إلى تجديد اللذة بالسعي إلى مثيرات شـهوانية جديدة، وموضوعات جنسـية جديدة، بعد أن استشعر الضجر من الموضوع الأول وبعد أن أدركه الشبع، محاولا أن يجدد الطبق ويعدد المأكـولات، ثم يعود فيشـبع فيقلب المائدة ويبحث عـن غيرها، وقد يهبط إلى درك الشـذوذ والانحراف سـعيا وراء مثيرات وهمية جديـدة، وهكذا يهبط من ظلام إلى ظلام أشـد في نزوع شـهواني إلى محض الشـهوة وبلا هدف وإنما

لمجرد قصور ذاتي وآلية مادية مودعة في الحشـوة الطينية، فذلك طريق هابط إلى الغلظة والآلية والعبودية والظلمة، في حين أن طريق الحب طريق صاعد إلى التحرر والانعتاق والانطلاق والنورانية والمودة والرحمة، وإنما جاء الخلط بين الطريقين بسبب ذلك اللقاء بين النزعتين عند هدف مشترك في لحظة خاطفة، فخيـل للناظر في أعمـاق النفس أنه أمام نوعية واحدة من الشـعور منبثقة من عين واحدة، والحقيقـة أننا أمام نوعيتين متناقضتين تنبع كل منهما من عين مختلفة، الشـهوة تنبع من عين طينية مادية، والحب ينبع من عين نورانية صافية علوية.

ولهذا نرى الشـهوة يمكن أن تشـتعل بدون حب بل أحيانا مع الكراهية، وأحيانا نرى الرجل يطلب إشـباع شهوته بالثمن، ونرى المرأة تزاول شهوتها بالحرفة، وكلها أمور مسـتحيلة في حالة الحب، فالحب لا يشترى ولا يمكن أن يكون حرفة أو تجارة، ولا يصلح فيه تمثيل أو ادعاء.. ثم إن لحظة الشهوة تنسى بعد دقائق على حين نرى ذكريات الحب تلازم صاحبها سنوات عمره.

رفع «السكندري» بصره من صفحة الكتاب إلى وجه جليسه ثم قال: إلى هنا ينتهي الكلام المنقول فانظر يا صاح ما تقول؟

«راغـب»: ملخـص الكلام هـو وصف الصـراع الأزلي بـين قبضة الطين ونفخـة الروح، الحـب إيثار وعطاء والشـهوة أثرة واسـتلاب، الحب قرين المودة والرحمة، والشـهوة قرينة العنف والقسوة، الحب يقنع بالكلمة الطيبة واللمسة الحانية والنظرة الشاكرة، والشهوة لا تقنع ولا تشبع أبدا.

«السكندري»: نعم.. فلا يملأ عين ابن آدم إلا التراب.

«راغب»: ولكن كل ما ذكره صاحب الكتاب لم يُزل عنائي ولم يرفع بلائي، ألم يذكر – وأراه صادقا – أن الحب لا يشترى ولا يمكن أن يكون حرفة أو تجارة ولا يصلح فيه تمثيل أو ادعاء؟ فأين السبيل بين الحب الذي لا يتقد عندي أبدا وبين الشهوة التي لا تنطفئ أبدا؟

«السكندري»: لذلك كان حب النساء أشق أنواع الحب، الأب والأم والأخ يسهل إرضاؤهم، والمرأة رضاها لا يرام، حب المرأة يقلب كيان الرجل بالكلية وقد يذهب بالعقل، فلم يحدثنا التاريخ مرة عن مجنون الأم أو الأب أو الأخ، لكن لم يزل يحدثنا عن مجنون ليلى ولبنى وعزة وعبلة.

«راغب»: ولم يرافق الحب الشقاء؟ ولماذا يقترن بالجنون؟

«السكندري»: يصاحب الشقاء الحب حتى لا ينسى المحب أن حبه هناك وليس هنا، وأن نقاء الحب محله دار البقاء لا دار الأكدار، ومن غفل عن حقيقة الجمال المطلق من وراء الجمال الظاهر في محبوبه وانشغل بهذا الجمال الزائل وتوقف عنده كان كمن غرق في تقبيل نحاس الضريح في حين أن المحبوب الحقيقي هو روح الحسين رضي الله عنه على سبيل المثال الذي أورده صاحب الكتاب، وتلك وثنية قد يسقط فيها العاشق ولا يدركها.

«راغب»: فلماذا يقترن الحب بالجنون؟

«السكندري»: حتى لا يركن البشر إلى العقول في الوصول، ففي طريق الحب ما يقطعه القلب في سِنة يقطعه العقل في سَنة، والصادقين من المحبين لم

يكن جنونهم نابعا من الحماقة والبله وإنما غاية الأمر أنهم نجحوا في إخراج العقل من ساحة لا ناقة له فيها ولا جمل، ثم أسر السكندري كلمة قال فيها: اذكر الله حتى يقال مجنون.

«راغب»: يا للنساء وحبهن.. ما رأيت أذهب للب الرجل الحازم من إحداهن.

«السكندري»: حبهن نار وجنة، رحمة وقسوة، مودة وجفوة، سكن وشهوة، ذكرتني بقصة الشاعر الذي مر بنسوة فأعجبه شأنهن وشعر بفتنتهن فجعل يقول:

إن النساء شياطين خلقن لنا... نعوذ بالله من شر الشياطين

فأجابته واحدة منهن وجعلت تقول:

إن النساء رياحين خلقن لكم... وكلكم يشتهي شم الرياحين

ضحك «راغب» قائلا: ما أراهما إلا صادقين، ثم أردف: فما جواب سؤالكم أنحب ما نشتهي أم نشتهي ما نحب؟

«السكندري»: جواب اللاحق كجواب السابق، كل احتمال من الأربعة وارد، لا جرم أننا نحب ما نشتهي فقد زين لنا حب الشهوات، وبحكم الطبع نشتهي ما نحب، وكثيرا ما نشتهي ما لا نحب ونحب ما لا نشتهي.

«راغب»: الاحتمالان الأولان واضحان مفهومان، والاحتمالان الآخران يحتاجان مزيد بيان.

«السكندري»: الفاصل الفارق هو التوافق مع ما نعتقد، فطالما نحن في دائرة الشرع فما أعظمها من نعمة أن يوافق الحق الهوى كما في حديث وفي بضع أحدكم صدقة، وما أحسنها من منة أن نحب ما لا نشتهي ابتغاء رضاه، ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه، يعني أننا نحب الشهادة رغم بغضنا للموت، وإذا دخلنا دائرة النفس الأمارة أجبرتنا على اشتهاء ما لا نحب من المعاصي وزينتها لنا وعندها يبقى لنا حظنا من جهادها وما أكرمها من نعمة أيضا.

«راغب»: جهاد النفس وحب التضحية لدرجة تمني الموت خصلتان تميزان المؤمنين فماذا عن غيرهم؟

«السكندري»: بل هما خصلتان تميزان البشر جميعا، فلا يكون الإنسان إنسانا إلا إذا كان يقاوم ما يحب ويتحمل ما يكره، وبقدر ما تنتقص هاتان الخصلتان بقد ما تنحط إنسانية الإنسان.

«راغب»: وكلا الخصلتين تجتمعان في حب النساء، أليس كذلك؟

«السكندري»: بلى ولكن ليس كذلك فحسب، فحب النساء شأنه شأن ألوان الحب الأخرى كلما أضفت لها لونا كلما ازدادت كمالا وجمالا، فإذا أحببت في زوجتك الزوجة فحسب تنعمت بلون واحد من الجمال فإذا وجدت فيها الأم والأخت والصديقة والحبيبة تنعمت من الجمال بألوان عديدة فترات مديدة.

«راغب»: وكذلك الحال في حب الأم والحب الأبوي؟

«السكندري»: بلا شـك، فالأب الذي يقوم بدور الأب فقط لا يقارن بالأب الذي يلعب دور الأب والأخ والصديق والشيخ والمعلم وهكذا.

«راغب»: نعم.. وهكذا نفهم وصية الإمام علي رضي الله عنه (لاعبه سـبعا وأدبه سبعا وصاحبه سبعا) ما أعمقها من حكمة.

«السكندري»: الحب يعلم الجمال، ومعرفة الجمال طريق الكمال، وطريق الوصول للكمال يعلم الحكمة، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا.

«راغب»: إذا ما يميز حب النسـاء عن غيره من أشكال الحب هو ارتباطه بالجمال.

«السـكندري»: نعم ويتجلى فيه الجمال في صور متعددة من السكن والمودة والرحمة إلى العشرة الطيبة إلى التفاعل والمشاركة إلى نظم الشعر ونثر الحكمة.

«راغب»: وهكذا تتنامى وتتكامل دائرة الحب في الحياة البشرية، من حب الرحمـة والفضل المتمثل في الأم إلى حب الحق والعدل المتمثل في الأب إلى حب الأنس والصدق المتمثل في الأخ إلى حب الحسن والجمال المتمثل في الزوجة.

«السـكندري» مكملاً: إلى حب الكمال والجلال والجمـال المتمثل في خير الأنام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام وهو بابك الأوحد لحب الحنان المنان.

«راغـب»: عادة ما تصوغ الشـعوب تصوراتها عن المـوت والحياة والحب والكره وغيرها في حكاياتها وقصصها وأساطيرها، فهل تجد في أسطورة إيزيس وأوزوريس الشهيرة عندنا كأقباط انعكاس لطبيعة الحب في تراثنا؟

«الســكندري»: لا.. لا أجد ذلك، لأنني لا أجد في الأسطورة الشهيرة قصة حب بقدر ما هي نظرية سياسية، تنتصر للملكية وتدين الفوضى، وتم اختزال دور إيزيس فيها في البحث عن عضو التخصيب ليســتمر الملك وينتقل للوريث الشرعي.

«راغب»: إذا فالسياسة أفسدت حتى الحب.

«الســكندري»: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون. فما بالك بقرية الحب.

«راغب»: صدقت يا سيدي.

«السكندري»: هل اكتفيت؟

«راغب»: اكتفيت وما ارتويت، ومازال لي من اسمي نصيب.

«السكندري» باسماً: « إنا إلى الله راغبون «.

«راغب»: أجل والله.

«الســكندري»: إن أحببت أعدنا الكرة وإن أحببت دللتك على حكيم أخر قد يجعلك تنظر للصورة من زاوية أخرى.

«راغب»: بل دلني وأنا لك من الشاكرين.

«السكندري»: عليك بالحكيم الفارسي.

* * *

الفصل الثاني

الحكيم الفارسي

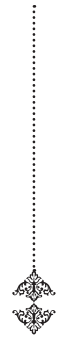

بسم من سمي الوجود باسمه، وبه دار الفلك، وسكنت الأرض

فهو محرك الفلك، مُضيء النجوم، معلم الحكمة للعقل دون وسيط

واهب الجواهر لدقائق الأفكار، متبع الليالي الحالكة بالنهار

يشهد الوجود كله على وجوده، فوجوده قاهر لجميع الموجودات، وآياته ظاهرة لكل نظر

أمنية عيون المتأملين، أنيس خاطر المتبتلين

لا يصعب على إنسان التعرف عليه، لكن أمره ينجز إلى الندامة كذلك(١)

وهو العالم بسر طواف النجوم الجوالة حول كعبة الأرض

ومن معبودها في هذا المحراب وما هو هدفها من هذا الذهاب والإياب

وماذا تبتغي من إنزال محملها؟ وعم تطلب من قطع المنازل؟

فهي كلها مضطربة حائرة كالفرجار جادة في البحث عن خالقها

---

(١) يعني لا يصعب على إنسان التعرف (على صفاته) لكن أمره يؤول إلى الندامة في معرفة ذاته.

فيا الهي ! كما سويت طينتنا وأخذت ميثاقا علينا

فأننا نؤدي حق الخدمة قدر ما نستطيع ما دمنا أسرى ضعفنا

و أني لك - يا الهي - أن تضيع الضعفاء بكل ما تتصف به من الطاف؟

فلو ترضى عمن خلقته من حفنة تراب فأن رضاك ينفعنا ولا يضرك

فالهمني الصبر كي أتحمل العسر ولا تجعلني اغفل عن أمري ساعة اليسر

وبصرني بحكمتك وازل حجاب الغفلة عني

فاني خطوت قاصدا خدمتك فارشدني اذا ضللت الطريق

وانر سرجي بنورك ولا تبعد رأسي عن أعتابك

وداو رأسي المتألمــة واجعل دواءها من تراب أقدام المصطفى الذي تعد الكائنات ثرى له

على روحه الظاهرة ألف سلام إنه سراج عين أهل البصيرة الوهاج وزينه جموع المخلوقات

وهو قائد ساحة الوفاء ورئيسها وأمام الأنبياء وزعيمهم

وقد تدلل اليتامى بفضل أنفاسه ولهذا سمي: الدر اليتيم

لمقدمة سرير العرس تاج فهو أمين الوحي، وصاحب أسرار المعراج[1]

---

(١) من الأدب الفارسي: خسرو وشيرين – المؤلف: النظامي الكنجوي (٥٣٠ هـ / ٦١٩ هـ) – المترجم: عبدالعزيز بقوش الناشر: المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة – عدد الصفحات: ٤٣٨ – سنة النشر: ٢٠٠٠

جلس «راغب» بجانب الحكيم الفارسي يتأملان آية من آيات الجمال، شروق الشمس على الوديان من خلف الجبال، فرشاة من نور تمحو صفحة الظلام، ثريات من ذهب تتخلل قمم الأشجار، خيوط الضياء تنتشر بين السهول لتزيح الأستار، فتتمايز ألوان الكائنات وتتباين أشكال المخلوقات، نباتات وجمادات وحيوانات، أشجار وأحجار وأطيار، بعد أن كان الكل سواء منذ لحظات، فقط البصير من يدرك هذه التغيرات أما الضرير فالمشهد في عينيه على ما كان عليه.

قال «راغب» دون أن يحول نظره عن المشهد الخلاب: سيدي هذا بدء اليوم قد رأيناه وختامه قد عرفناه، فما بدء الحب وما منتهاه؟

طال صمت «الفارسي» حتى ظن «راغب» أنه لم يسمعه، أو سمع ولن يجيبه، ثم قال دون أن يلتفت أيضا: الحب لا نهاية له.

أدرك «راغب» أن «الفارسي» قد آثر أن يبدأ من النهاية فقال في نفسه: (لا بأس أحيانا تدل النهايات على البدايات ولعلي إذا صبرت ظفرت بجميع

الغايـات)، ثـم رفع صوتـه قائلا: لكننا يا سـيدي رأينا مـن يذبل الحب في قلوبهم، ومن يلزم محبوبه زمنا ثم ينصرف عنه.

«الفارسي»: حب الفاني يفنى وحب الباقي باق.

«راغب»: ومع ذلك يا سيدي كثيرون بقي حبهم بعد فناء محبوبهم.

«الفارسـي»: هؤلاء كانـوا يحبون المعانـي الخالدة والصفـات الباقية في محبوبهم الفاني، ثم أضاف متبسـماً: ألسـتم تتغنون يا أهل النيل بأن عشـق الروح ليس له آخر لكن عشق الجسد فان.

«راغـب»: وماذا عن الذين أحبـوا ثم هجروا، ودنوا ثم نـأوا، وصفوا ثم جفوا.

«الفارسـي»: هؤلاء إذا افترضنـا أنهم كانوا صادقـين في حبهم فقد كانوا قاصرين في معرفتهم، فلما عرفوا عن محبوبهم ما كان عنهم غائبا، وظهر لهم منه ما كان عنهم خافيا، تبدد ودهم وانطفأ شوقهم.

«راغـب»: نعم يا سـيدي هناك من كلما ازددت بـه معرفة كلما ذُبت فيه عشـقا، وهناك من إذا أحطت به علما نفرت منه زهدا، لكن يا سـيدي أليس الحب يمنع من المعرفة الحقة؟ أليس حبك الشـيء يعمي ويصم؟ فأنى للمحب أن يعرف عيوب محبوبه؟

«الفارسـي»: وعين الرضا عن كل عيب كليلة وعين السخط تبدي المساوي، هذا في حق المحبوبات الأرضية أما المحبوبات السـماوية فارجع البصر فيها كرتين يرتد إليك البصر خاسئا وهو حسير.

«راغب» متحيرا: لم أفهم يا سيدي.

«الفارسي»: كلما كان المحبوب أرضيا ماديا فانيا كلما أمكن لعين النقد اختراقه، ومهما أعماها الحب زمنا فسيأتي يوما تزول فيه الغشاوة عنها ويرتد البصر إليها، وكلما كان المحبوب سماويا روحانيا باقيا كلما عجزت عين النقد أن ترمه بسهم، وكلما نظرت إليه بعين الشك زال عنك الريب وزاد منك الفهم ورسخ فيك اليقين.

«راغب»: أيهما الأسبق يا سيدي الحب أم المعرفة؟ هل الإنسان يعرف فيحب أم يحب فيعرف؟

«الفارسي»: مستويات الحب والمعرفة تتداخل وتتشابك، كلما أحببت كلما تطلعت إلى مزيد معرفة بمحبوبك، وكلما عرفت محاسن محبوبك كلما زاد حبه في قلبك، لكن نقطة البداية تكون المعرفة فما لا تعرفه هو عدم بالنسبة لك ولا يتصور حب العدم.

«راغب» فرحا: ها قد عدنا إلى الشطر الأول من السؤال، تريد أن تقول أن بدء الحب بسبب المعرفة.

«الفارسي»: لا يا بني، فكما أن الحب لا نهاية له فكذلك لا سبب له، فكم عرفنا أناسا رائعين ولما يدخل حبهم في قلوبنا، إنما كنت أحدثك في إطار العلاقة بين الحب والمعرفة لا في بدء الحب.

«راغب»: فما بدء الحب إذا؟

«الفارسي» مدندنا:

لحظ رنا.. قوس رمى.. سهما أصاب مهجتي

عين المها.. تسبى النهى.. بسحرها تلك التي

هاجت خيالي.. فظلمت حالي.. أفلت مقود صبوتي

يامن لها.. يكفها.. عن غيها.. وإثارتي

سكت «الفارسي» برهة ثم أضاف: بدء الحب يا ولدي سهم غرب يقع في الفؤاد، لا تقدر على نزعه ولا تصبر على ألمه.

«راغب» وقد شعر أن البحر يزداد عمقا: يا سيدي قطعت إليك الفيافي شوقا إليه، لكن حديثك الآن عنه يجعلني حائرا بين الرغبة فيه والرهبة منه.

«الفارسي»: هكذا الحب يا بني تفر منه إليه، وترغب عنه فيه، وترحل منه إليه، وتدور معه فيه، يوما تجد مرارته شهدا ويوما تجد حلاوته حنظلا.

«راغب»: حتى متى؟

«الفارسي»: حتى تستعذب عذابه.

«راغب» في صوت من بَعُد حلمه وفقد أمله: يا ويحي منكم يا أهل فارس. ألا تعرفون سوى هذا اللون من الحب ! لكأنك يا سيدي تشير إلى صرخات الحلاج:

اقْتُلُوني يا ثقاتي = إنّ في قتلي حياتي

ومماتي في حياتي = وحياتي في مماتي

أنّا عندي محو ذاتي = من أجَل المكرمات

وبقائي في صفاتي = من قبيح السَيّئات

سَئِمَتْ نفسي حياتي = في الرسوم الباليات

فاقتلوني واحرقوني = بعظامي الفانيات

ثم مرّوا برفاتي = في القبور الدارسات

تجدوا سرّ حبيبي = في طوايا الباقيات

التفت «راغب» إلى «الفارسي» واعتدل في جلسته ليصبح مقابلا له بعد أن كان بجانبه، ثم قال: أهذا هو منتهى الحب يا سيدي؟ الموت؟ ثم اضاف متحيرا: وماذا عن الفناء والجنون والشطح والذهول؟ ألا توجد للحب غير هذه النهايات الهاويات؟

«الفارسي» وهو لم يزل محتفظا بهدوئه، ولم يتأثر بثورة "راغب": لقد أخبرتك أن الحب لا نهاية له ولكنك لا تريد أن تقتنع، الفناء والجنون والشطح والذهول كلها أحوال قد تعتري العاشقين، وقد يطول مقام بعضهم في تلك الأحوال حتى تنتهي حيواتهم، فهل نعتبرها حينئذ منتهى الحب أم نقر بأنها نهاية المحب؟

«راغب»: يعني العيب فيهم أو في أحبابهم أما الحب يا روحي عليه، أليس كذلك؟

لم يمنع «الفارسي» نفسه من الابتسام وهو يقول: لا زلت لا تستطيع

التحرر من تراثكم الفني، ومع ذلك أقول لك إن إجابة سـؤالك هي: بلى. ولو قدر لهؤلاء العاشـقين طول العمر لاجتازوا تلك الأحوال ولاستمروا في الترقي في كمالات الحب.

«راغـب» مسترسـلا: ولكف «الحلاج» عن الشـطح، ولأفـاق « قيس» من الجنـون ! لا أتصور ذلك يا سـيدي، فأمثال هؤلاء حتى لـو امتد بهم العمر عقودا لبقوا على أحوالهم التي ملكت عليهم حيواتهم، وحققوا فيها ذواتهم، ووجـدوا فيها أقصى غاياتهـم التي لم يبق بعدها ألا أن يغـادروا هذه الحياة ليلحقوا بمن أحبوا في حياة أخرى.

«الفارسي» عاقدا حاجبيه: ربما. يمكن بالفعل أن تتملك الأحوال المحبين فـلا يسـتطيعون التحرر منها مهما طـال العمر، ولكن هـذا لا يعني أن تلك الأحـوال هـي نهاية الحب، وكلامك في جوهره حجة لـي لا لك، فطالما أنهم أردوا اللحـاق بحبيبهم في حيـاة تالية فهذا يعني أنهم أدركوا أن الحب ليس له منتهى.

أخذ «راغب» يسـتعيد جملا من كلمات «الفارسي» في ذهنه، ويرددها على قلبه، فشـعر أن وراءها بحارا لم يخضها وجنانا لم يلجها، فأراد أن يستزيد من البيان ويقف مع بعض ما مر عليه مرور الكرام فقال: ذكرت يا سـيدي أن حب العدم لا يكون، فلابد للمحب من معرفة شـيئا عمن أو عما يحب، ولكن مـاذا لو كان مـا عرفه المحب عن المحبوب غير صحيـح وأحبه على ما علم؟ أيمكن للحب أن يبنى على الكذب؟ وما مصير هذا الحب الكاذب؟

«الفارسـي»: حب المعدوم محال لكن حب الموهوم مُنـال، ومن الناس من

يتخـذ من دون الله آلهة يحبونهـم كحب الله، الحب الكاذب قصير الأمد، ولا يمكنـه أن يحيا أكثر من الحياة الدنيا وهـي واحدة فقط من الحيوات الخمس التي يعيشها الإنسان، الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين.

«راغب»: وما تلك الحيوات الخمس التي نحياها؟

« الفارسـي»: عالم الذر وفيه تآلفـت الأرواح وتنافرت وأعطت الميثاق بين يـدي ربها، وعالم الرحم وفيه نُفخت الـروح وكتبت المقادير الأربعة، وعالم الأرض وفيـه البلاء والابتلاء، وعالم البرزخ وفيـه الفتنة والضمة والفُرجة، وعالم الآخرة من البعث إلى الخلود.

ثـم نظر « الفارسـي» كأنه يتطلع إلى ما وراء الأفـق وقال: وهكذا ترى أن الحب الصادق يبدأ من عالم الذر إلى عالم الخلود، والحب الكاذب على الأرض يحيا وفيها يموت.

راح اللحـن الـذي كان يردده «الفارسـي» منذ دقائق يعـزف على وجدان «راغب» فأنصـت له بمهجته لحظات (لحظ رنا.. قوس رمى.. سـهما أصاب مهجتي) ثم قال: ماذا علي أن أفعل لأجعل القوس يرمي ويصيب سـهم الحب قلبي؟

«الفارسي»: ليس لك من الأمر شيء.

«راغب»: ولِمَ؟

«الفارسي»: لأن الحب يا صاح وهبي لا كسبي.

«راغب»: فما السبيل إليه إذن؟

«الفارسي»: لا سبيل إليه بالكسب ولكن أقصى ما تستطيعه تخلية القلب ليجد محلا يسكن فيه، كيف ترجو أن ينشغل قلبك بالحب وقد ملأته بما سواه.

أتاني هَواها قَبلَ أن أعرفَ الهَوى
فَصادَفَ قَلباً خالِياً فَتَمَكّنا

«راغب»: القلب ذاك الصندوق المغلق الذي لا أدري ما فيه ولا سلطان لي عليه، كم من الرياضات يحتاجها الفرد لتخلية القلب؟ وهل فعل ذلك جميع المحبين؟ ما سمعنا بهذا في قصص العاشقين، وإنما تمكن الحب منهم دونما عناء.

«الفارسي»: سألت عن السبيل للسالكين فلما أجبتك تمنيت حال المجذوبين !

«راغب»: يا سيدي بحلمكم اعذروني، فطالما بدء الحب ليس في مقدوري فقد أغلقتم بابه دوني.

«الفارسي»: وهل باب الحب بيدي يا ولدي لأغلقه دونك أو دون غيرك، إنما بابه مفتوح أبدا، وطريقه ظاهر أمام عينيك، من ذا الذي يحل بينك وبينه إلا نفسك التي بين جنبيك؟

«راغب» متأثراً: لو أبصرته لسلكته.

«الفارسي»: هذا لأنك تنظر بعيني رأسك، ولكن انظر بعين قلبك.

«راغب» في يأسٍ وآسى: قلبي مرة أخرى، ها قد عدنا إلى حيث بدأنا.

«الفارسي»: خلق الإنسان من عجل.

«راغب»: تطلب مني تخلية قلبي وقتل نفسي التي تحل بينه وبيني، وترى ذلك هيناً ميسوراً، وتريدني أن أقول لك على الرأس والعين وأكون مسروراً!

«الفارسي»: لم أطلب منك شيئا، ولا أريد منك قولا، إنما سألتني فأخبرتك.

«راغب»: أليس الناس مفطورين على حب الإحسان والجمال، وها هو الإحسان قد عم الكون، وملأ الجمال جنباته.. في المباني والمعاني، في الأخلاق والخلائق، في الطبيعة وما وراءها، فلما أصبح الحب عزيز المنال بعيد الترحال نادر الوجود؟

«الفارسي»: تتحدث يا ولدي وكأنك لم تعرف الحب يوما، كأنك لم تدخل قصره ولم يدخل قلبك، كأنك سمعت عنه بأذنك ولم يدركه بصرك، ألم تحب من قبل أبدا؟

«راغب»: أحببت ما يحب الناس، أحببت الشهوات من النساء والبنين وقناطير الذهب والفضة، وما هذا بالحب الذي أبحث عنه.

«الفارسي»: عسى الله أن يرفعك في الحب درجة ويسقيك من الحب قطرة وينقلك في الحب نقلة.

«راغـب»: أين الثرى من الثريا؟ أين حب الشـهوات من حب رب الأرض والسموات؟

«الفارسـي»: قطرة من فيض جوده تملأ الأرض ريـا ونظرة من عين رضاه تجعل الكافر وليا.

«راغب»: هل يمكن للإنسـان أن يتدرج في الحب من حب الرذائل إلى حب الفضائـل؟ وأن يترقى من حـب الحفر المنتنة إلى حب القمم المزهرة؟ ومن حب الأجساد البالية إلى حب الأرواح الخالدة؟ أم إن الأولى تحجب الآخرة؟

«الفارسـي»: حب الشـهوات، وحـب العاجلة، وحب المـال، وحب الله ورسـوله وجهاد في سـبيله، كل ذلك سمـاه القرآن حبا، فالحـب في النهاية واحد، الحب هو الحب.

«راغب»: وهل يسـتوي يا سـيدي شـرب الغسـلين مع شـرب التسـنيم والسلسبيل؟ ونقول كله شرب! والضريع الذي لا يسمن ولا يغني من جوع هل بقي له من صفة الطعام شـيء؟ وخمر الجنة التي لا يصدعون عنها ولا ينزفون هل تشـترك مع خمر الدنيا في شـيء غير اسمها؟ فكيف يكون هذا الحب هو ذاك الحب؟

«الفارسـي»: لو لم يحب الناس المال والبنون والزينة والجاه والسلطان وما شـابه فكيف سيعرفون إذا أحبوا العطاء والفداء والزهد والتواضع والافتقار أن ذلـك حبا؟ لو لم يكن تذوق الغسـلين من عذاب الجحيم فكيف سـيدركون أن

السلسبيل والتسنيم من النعيم المقيم؟ والضريع في النهاية شئت أم أبيت طعام يؤكل وإن لم يشبع ويسمن.

وفي غفلة من «راغب» أعقبتها دهشة، أخرج «الفارسي» قنينة خمر ووضعها على الأرض بينهما، لم يدر «راغب» من أين أخرجها؟ أمن جيبه؟ أم من حقيبته؟ أم من الهواء؟ أراد أن يَفهم فهم بالسؤال ثم آثر أن يُفهم فلاذ بالسكون.

قرأ «الفارسي» ما ظهر في عينه وما بطن في عقله فسكت بدوره وطال صمته حتى هدأت عين جليسه وسكن عقله ثم قال: ولع العرب في جاهليتهم بالخمر متواتر مشهور، وجاء القرآن الكريم وأعاد صياغة القلوب فاستحال الحب بغضاً والولع نفوراً، وما جاء في السنة الشريفة من لعن الخمر وذمها جعلها من المعاصي التي لا تشتهى بالنسبة لكثير من الأجيال اللاحقة من المسلمين، بمعنى أنه إذا بقي نوع من الشوق إلى الخمر في وجدان الجيل الأول فهو أمر مبرر لقرب العهد بها وتأصلها في ثقافتهم وأشعارهم، أما أن يبقى هذا الهيام بها في أشعار الصوفية المتأخرين فمستغرب وإن كان جوهرها الرمزية والإشارة إلى المتع الروحية العلوية لا المتع النفسية السفلية، ولكن يشفع للصوفية ما جاء من تشويق القرآن إلى خمر الجنة، تلك الخمر التي سلبت عنها جميع صفات خمر الدنيا الذميمة بحيث لم تعد تشترك معها في شيء سوى الاسم كما تظن، ولكن إذا دققنا وجدنا أنهما أيضا تتفقان في إحداث النشوة وهي المقصد الأساس من شربها إلا أن خمر الدنيا تحدث نشوة مدنسة نجسة مصحوبة بغياب العقل وبالتالي إطلاق الغرائز الحيوانية إلى المدى مع دفن الضابط

الأخلاقي، بينما خمر الجنة تحدث نشـوة قدسية مع الصحو لا السكر وهذا منتهى العجب، أن يجمع الإنسـان بين نشـوة الروح وصحوة العقل، ولعلها حالة تشبه الجمع بين نوم العين ويقظة القلب، وصلى الله وسلم وبارك على من كانت تنام عينه ولا ينام قلبه.

نظر «الفارسي» في عيني «راغب» مباشرة ومد يده إليه بالقنينة وهو يقول: عليك أن تشربها مرة واحدة فقط لتفهم سر هذا الولع بها في الإشارة إلى المعاني العلوية، ولتتذوق أشعار القوم وتدرك أثر الخمر في العرب أيام الجاهلية.

مـاذا يريد هذا «الفارسـي» هل يعني ما يقول أم أنـه يختبرني؟ وإذا كان هـذا امتحان فهل النجاح فيه بالرفـض أم بالقبول؟ هل أقدم الثقة فيما أعلمه فأرفض أم الثقة فيمن يُعلمني فأجيب؟ قصة موسـى والخضر عليهما السـلام كانت ولا تزال وسـتظل مصدر إلهام ومرجعاً يرام لكل عالم ومتعلم، وشـيخ ومريد، وحكيم وباحث عن الحكمة، ولكن يا ويل العلم وقومه ويا ويح الطريق وأهله لو تصدر لها واتكأ عليها كل متعالم بليد أو دعي عنيد أو شيطان مريد، تـرى ما الذي دار في ذهن الكليم عليه السـلام وهو يرى العبد الذي علمه ربه مـن لدنه علما يخالف ما أنزله ربه عليه مـن الكتاب وما كتبه له في الألواح؟ وإذا كان الكليم عليه السلام بعد أن قطع على نفسه العهد بالصبر وعدم مخالفة أمر الخضر عليه السـلام الذي أرشده الله تعالى إليه وأوصاه بمصاحبته، عندما رأى مشهد خرق السفينة التي هي مصدر رزق الفقراء الكرماء نسي وعده رقة لهـم ورأفة بهم وحرصا عليهم، وعندما أبصر مشـهد قتل الغلام لم يسـتطع مع اغتيال البراءة وسـفك الدم الحرام صـبرا، فما بالك بمن كان حاله كحالي

ومثاله كمثالي؟ كلا. لا أستطيع، وسرعان ما انتقلت الكلمة من جنانه إلى لسانه فهتف قائلا:

لا أستطيع.. لا أستطيع.

سحب «الفارسي» يده من أمام «راغب» ثم فتح القنينة ورفعها إلى فيه وأفرغها فيه، ثم قال: يا ولدي أنت لم تتقن الفهم عني ولم تحسن الظن بي، أخبرتك أن القوم يسمون الأشياء بغير اسمها، ويستعيرون الكلمات الدالة على الملذات الحسية للتعبير عن اللذات الروحية، وما قدمته لك لم يكن خمرا وإنما شراب صنعته من بعض الثمار والأزهار بطريقة خاصة فأصبح له مذاق فريد وتأثير عجيب، كان سيجعلك تعي أن ما يدرك بالذوق لا يُحَصل بالسمع، وكان سيمنحك تجربة لم تخضها من قبل ولذة لم تختبرها قط. ثم أنشد:

اشرب شراب أهل الصفا (اللّه اللّه) ترى العجايب
مع رجال المعرفة (اللّه اللّه) والخمر طايب
خطرتهم واحد نهار (اللّه اللّه) يا قومي خطرة
وجدتهم أهل الغرام (اللّه اللّه) وهم في حضرة
عيونهم مسبلة (اللّه اللّه) ووجوههم نضرة
قلت لهم أدخل بحماكم (اللّه اللّه) يا ذا الموالي
قالوا لي تقبل شرطنا (اللّه اللّه) والشرط غالي
تصبر على دربنا (اللّه اللّه) طول الليالي
تشرب كؤوس الحنظل (اللّه اللّه) والمر يحلو
تصبح سبيكة من ذهب (اللّه اللّه) يا من عرفنا

شـعر «راغب» أنه تجرع كأسـا من الحسـرة الممزوجـة باللوعة المخلوطة بالحـزن المضاف إليه الندم، وتمنـى أن يعض على يديه وهو يقول: معذرة يا سيدي، سامحوني.

«الفارسـي» باسما: لا عليك ولكن تذكر دائما أن الحكيم لا يمكن أن يكون سـكيرا كما لا يمكن للنبيل أن يصبح عربيدا، وأن الإنسـان إذا أساء الظن بمن حوله فلن يتمكن من حبهم، وإذا لم تتمكن من حب الصنعة فلن تصل إلى حب الصانع.

«راغب»: أيحـب العبد خالقه فيحب لحبه ما خلـق أم يحب الخلق أولاً فيحب من خلقهم؟

«الفارسي»: الشأن شأن مسألة المجذوب والسالك، فهناك من يجذبه الحق والجمـال والجـلال جذبة تأخذه إلى العلا فإذا ما أنفـك عنها هام على وجهه شوقا إليها يدفعه حنينه إليها فيسير ويسير ومنتهى أمله أن يعود إلى النقطة التي بدأ منها، وهناك من يبدأ بالسير والسلوك والرياضات والمجاهدات حتى إذا اسـتيأس وكاد أن يغرق جذبته الحضرة القدسـية إلى أبعد مما انتهى إليه أملـه، ولابد مـن الجمع بينهما لمن أراد الوصول، والله يجتبي إليه من يشـاء ويهدي إليه من ينيب.

«راغب»: إذا الانتقال في الحب بين الماديات والمعنويات مكرور، والترقي في درجاتـه مـن قبضة الطين إلى نفخة الروح مأمـول، وأول الغيث قطرة مثل مشهور.

«الفارسي»: نعم. ألم تسمع قول يوسف الصديق: (السجن أحب إلي مما يدعونني إليه)، وقول ابن الوليد: (ما مِنْ ليلةٍ يُهدى إليَّ فيه عروسٌ أنا لها مُحِبّ أحبُّ إليَّ مِن ليلة شديدةِ البرد، كثيرة الجليد، في سريَّةٍ أصبِّحُ فيها العَدُوَّ)؟

«راغب»: تقصد أن يوسف الصديق عليه السلام اختار حب المكان الموحش المقيد للحرية على العشق الحرام، وابن الوليد رضي الله عنه فضل حب الجهاد في الظروف الشاقة على العشق الحلال، فأين الانتقال هنا؟ وهل في الحب أصلاً تفضيل أو اختيار؟ ألم يقل عنترة بن شداد:

لَو كانَ قَلبي مَعي ما اِختَرتُ غَيرُكُمُ

وَلا رَضيتُ سِواكُم في الهَوى بَدَلا

لَكِنَّهُ راغِبٌ في مَن يُعَذِّبُهُ

فَلَيسَ يَقبَلُ لا لَوماً وَلا عَذَلا

«الفارسي»: يوسف عليه السلام لم يحب الوحشة والقيد بل أحب الأنس والحرية، فالوحشة في ظلمة المعاصي لا في ظلام السجن، والقيد في تقييد الإرادة لا في قيود الجسم، فإن كن يدعنه لإلغاء قناعاته والتنازل عن أخلاقه والخروج من تراثه النبوي الكريم والاستسلام للغواية والرذيلة فالسجن أحب إليه مما يدعنه إليه، فالانتقال هنا نوعي لأن نظرته إلى السجن باعتباره المكان الذي سيحتفظ فيه بما يحب من الهدى والتقى والأمانة والعفاف لا باعتباره المكان الذي سيعاقب ويحبس فيه جعلت المكروه إلى النفس محببا إليها، أما في حالة

خالد رضي الله عنه فالانتقال في الحب كان في الدرجة لا في النوع أي كان ترقيا، فالعشق الحلال ليس مكروها ولا لوم على صاحبه ولكن عشق الجهاد غلبه لأنه لم يكن من المتربصين الذين ذكرتهم آية سورة التوبة (قل إن كان آباؤكم...)، والأمر في الحالين لم يكن تفضيلا أو اختيارا بقدر ما كان تعبيرا عن الحال، حال النفور مما يغضب الله في الأول، وحال الشوق إلى ما يرضي الله في الثاني.

«راغب»: متى وأين وكيف يحدث هذا الترقي وذاك الانتقال؟ ولماذا يحصل لبعض البشر من دون العباد؟

«الفارسي»: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

«راغب»: إذا ما باليد حيلة.

«الفارسي»: نعم لا حيلة في الرزق ولكن أيضا لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، إنما يرزق الله الناس بعضهم من بعض.

«راغب»: واعجبا يا سيدي، إن أردت القعود أقمتني وإن ابتغيت القيام أقعدتني، والله لقد أتعبتني.

«الفارسي»: بل لقد أتعبت نفسي في النصح لك، ألم أخبرك بقول أبي حفص رضي الله عنه: إنما يرزق الله الناس بعضهم من بعض، فابحث عن أهل الحب والزمهم عسى الله أن يرزقك معهم أو بهم أو منهم، أليس إذا صحب المريض الأطباء يؤمل له الشفاء؟

«راغب»: بلى.

«الفارسي»: فكذلك.

«راغب»: ما أحسب أهل الحب إلا كالخل الوفي.

«الفارسي»: دعك من دعاوى الشعراء، فلئن صدقوا في استحالة الغول والعنقاء فقد كذبوا في استحالة الأخلاء الأوفياء، ثم تلا ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

«راغب»: وقليل ما هم.

«الفارسي»: ولكنك لن تعدمهم.

«راغب»: فأين أجدهم؟

«الفارسي»: إن يتسع قلبك يقو بصرك.

«راغب»: العالم الذي أنقذ قاتل المائة نفس أرشده إلى أرض معينة يجد فيها الصالحين العابدين، فدلني على أرض العاشقين.

«الفارسي»: لم تعد الأمور تجري على هذا النحو في زماننا، ثم تبسم وأضاف: وذاك كان أعلم أهل الأرض في زمانه ولست كذلك، وأنت لم تقتل بعد النفس الأولى فما بالك بالمائة؟

«راغب»: أخشى أن تقتلني هي.

«الفارسي»: دعني أقص عليك قصة أشهر عاشقين في تراثنا.

«راغب»: هات يا سيدي وكلي آذان صاغية.

«الفارسي»: كان يا ما كان، في قديم الزمان، ولا يحلو الكلام إلا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام.

«راغب»: عليه الصلاة والسلام.

«الفارسي»: سمع الأمير برويز بن هرمز ملك الفرس عن الأميرة شيرين أميرة أرمينيا فأحبها، فلما رآها غرق في عشقها، وقد بادلته عشقا بعشق، وكان الوزير بهرام يكيد الدسائس ليوقع بين الملك وابنه، فلما مات الملك هرمز استولى على الملك وكاد أن يفتك بالأمير برويز، فهرب إلى أرمينيا واستسلم للأمر الواقع، وأقام في جوار حبيبته حتى جاءت الفرصة وطلبها للزواج، فاشترطت عليه أن يهزم بهرام ويستعيد ملك أبيه المسلوب ليكون خسرو (كسرى) برويز وليس الأمير برويز، فانطلق إلى قيصر الروم يطلب منه المساعدة، فاشترط عليه القيصر شرطين، الأول ألا يتعد جنود الفرس حدود الدولة الرومية، والثاني أن يزوجه ابنته مريم وألا يتزوج غيرها في حياتها أبدا، فوافق برويز، فأمده القيصر بخمسين ألف مقاتل وانتصر على بهرام وأصبح خسرو برويز، فحزنت الأميرة شيرين حزنا بالغا وتنازلت عن العرش واعتزلت الحياة وأقامت في قصر لها بالقرب من المدائن العاصمة، فلما علم خسرو بذلك حاول اقناع زوجته مريم بحبه لشيرين، فهددته بقتل نفسها إن اقترب من غريمتها، فلما أسقط في يده أرسل صديقا له لشيرين ليحتال له على وصالها في السر، فاعتبرت شيرين أن هذا الطلب إهانة لها، وفضلت كرامتها على حبها، ثم طلبت من هذا الصديق أن يساعدها في حفر نهر صغير بين قصرها والمراعي لتحصل على الألبان وما تريد بيسر وبغير نصب، فأرسل لها

مهندسا بارعا يدعى فرهارد للقيام بهذه المهمة، فلما رأي فرهارد شيرين وقع في حبها وغرق في عشقها، ولما علم خسرو بالأمر أكلت الغيرة قلبه، وحاول أن يصرف فرهارد عن شيرين بكل وسيلة من الترغيب والترهيب فلم تنجح مساعيه، ودار بينهما هذا الحوار:

قال خسرو لِفرهاد: من أَينَ أَنتَ؟ أجاب: مِن مملكة العشّاق.

قال: ماذا يَعمل الرجال هناك؟ قال: يشترون الحُزنَ ويبيعون الأرواح.

قال: لَيسَ من العادة بيع الأرواح. قال: ليس هذا عجيبًا في تِلكَ الديار.

قال: ما هي علامة العشّاق؟ قال: يقدرون على العيش في البلاء.

قال: أَمِنَ قلبك عَشِقتَ هكذا؟ قال: أنتَ تتحدث عن القلب أمّا أنا فأتحدث عن الروح.

قال: أليست الحياة حلوة؟ قال: ليسَت أحلى من شيرين.

قال: أتراها كلّ ليلة كما أراها؟ قال نَعَم. ولكن أين النوم؟

قال: ماذا سوف تَفعَل إذا دخلَت في قصرها؟ قال: سَوفَ ألقى رأسي تحتَ قَدَمَيها.

قال: وماذا إن مَرَّت عليكَ؟ قال: سوف أكنس بعيني طريقها.

قال: وماذا إن طَلَبت كُلّ ما تملك؟ قال: أتوسل إلى الله أن تطلب كلّ ما أملك.

قال: وماذا إن سَفَكَت دمك؟ قال: مادام تسفكه الحبيبة فهو حلال.

قال: وماذا إن طلب يَدَها شـخصٌ آخـر؟ قال: إذا كان هُوَ حديدًا فهذا هُوَ فأسي أيضًا من الحديد.

قال: وهل تبيع روحَك؟ قال: إذا ذهبت شـيرين من قلبي، فما هي فائدة الروح.

قال: إلى مَتى تتحمل الآلام من حبّها؟ قال: ما حييتُ بل في الموتِ أيضًا.

قال: اذهب واصبر عنها. قال: أعن الروح أصبر؟

قال: ألا تخشى أحدًا في حبها؟ قال: لا أخشى إلا محنة فراقها.

فقال خسـرو لنفسـه: ليس هذا الرجل ممّن يعميه الذهـب ويلينه المال. يجب أن نتخلص منه بطريق آخر.

قال الملك خسرو لفرهاد الفنّان: يوجَد جَبَلٌ في طريقنا يُسَمّى جَبَل بيستون ويجب شقّ طريق وسط ذلك الجبل يليق بذهابنا وإيابنا. ليس في متناولِ أيدي العقلاء تنفيذ هذه المُهمّة؛ أَمّا أنت، أيّها العاشق المجنون، فتستطيع أن تفعل ذلك. ولا يبقى بينك وبين شيرين إلّا ذلك الجبل.

فاستفسر فرهاد عن موضع ذلك الجبل وأرشَدَهُ المُرشدون إلى جبل بيستون. في البداية، نحت فرهاد بفأسـه تمثال شـيرين وكانت تـزداد قوته كلّما ذكر اسـم حبيبته أو نظر إلى تمثالها وكان يحـرق الصخور من الضحى حتّى الليل بضربات فأسه وبآهات قلبه.

فوصل الخبر إلى خسرو بأنَّ فرهاد ازدادت قوة يده فصار يزلزل الجبالَ بضربات فأسه ولو أنَّهُ يستمرّ هكذا لن تأخذ إزالة جبل بيستون وقتًا طويلًا. فَقال ندماء خسرو لَهُ: ابعث إليه في الحال من ينبئه بموت شيرين. فإن مات نكون قَد وصلنا إلى مُرادنا وإن لَم يمت نكيد له أخرى.

و كانَ للملك حارسٌ فَطَلَب الملك منه أن يسرع إلى فرهاد ويخبره بموت شيرين. فأسرع نحو فرهاد المسكين وقال لَهُ: أيّها الشاب العزيز! لماذا تضيع وقتك في حفر الجبل عبثًا على هذا النحو؟

فأجاب فرهاد: إنّي أعمل هذا لأجل جميلة تُسَمّى شيرين

قال الحارس: أيّها المسكين! لَقَد مضى على موت شيرين أكثر من أسبوع؛ لا تكلف نفسك عناء المشقة أكثر من ذلك.

عندما سمع فرهاد هذا الكلام، ضرب رأسه على الحجر حتّى ظهر من الصخر نهرٌ من الدماء.

فَخَرّ بين التراب والدم قائلًا: ماذا صَنَعتَ بي، أَيُّها الرجل؟ إنّكَ قَتَلتَني بالآلام، كنتُ أودّ أن أموت تحت قَدَمَيها؛ لا أن تموت هي وأظلّ أنا حيًا. والآن، وهي مدفونة تحت التراب، فما هي فائدة حياتي؟ ليسَ من علامات المحبّ أن يبقى حيًّا بَعَد موت حبيبه. أيّتها الريح! اخلطي ترابي بترابها وامزجي دمي بدمها لتمتزج روحي بروحها. سوفَ أغادر هذه الدنيا كما غادَرَتها شيرين فَلَيسَ بيني وبينَ الموت سوى نفس واحد. قال فرهاد هذه الكلمات وأوقَعَ نفسه من قمة جبل بيستون وفاضت روحُهُ.

حَمَلوا الخبر إلى شيرين بأنَّ الملك قد سفك دم فرهاد حافر الجبل. فأسرعت شـيرين حافيةً إلى جبل بيسـتون لتبكي شـهيدها بنواح وجزع. واقتربت من جَسَده فَغَسَلت بدموع عينيها الحجر من دمه. ثُمَّ أَمَرَت خدمها فَغَسَلوه وكَفَنوه ودفنوه.

سـكت «الفارسـي» برهة، ولمح «راغب» دمعة تفر مـن جفنيه في صمت، فانتظر قليلا ثم غلبه شوقه إلى المعرفة فقال: ثم ماذا يا سيدي؟

«الفارسي»: ثم مرت الأعوام والشهور، وماتت مريم زوجة خسرو، وبالغ خسـرو في الاعتذار لشـيرين وترضيها حتى رضيت، واجتمع العاشقان بعدما ظنا ألا تلاقي، وتزوج خسـرو بشـيرين، لكن شيرويه ابن خسرو من مريم لم يرض، وظن أن أبيه قد تآمر مع شيرين على قتل أمه، فبدأ يكيد لوالده كيدا، وكان خسـرو قد زهد في الملك بعدما وجد الحبيب، فتنازل عن العرش لابنه، لكن الابن الحقود لم يكتف بذلك فأمر بسـجن أبيه وزوجته، ورضي خسـرو بالسـجن في جوار الحبيب، وكان يقول لزوجته: لَقَد فقدتُ كُلّ شيء ومَعَ ذلك أشـعر بالسعادة لقربك منّي، وأجد هذا السـجن المظلم أوسع في عينيّ من ذلك القصـر، فإن خلّت يداي من الدولة، فأنتِ في يـدي؛ وما دمتِ مَعي، فكأنني أملك كُلّ شيء.

«راغب»: وهكذا انتهت القصة؟

«الفارسـي»: لا. فالابن الحقود شـعر أن انتقامه لم يجد نفعا، فالعاشقان القاتلان لا يزالا سعيدين، فقرر أن يضرب الضربة القاضية:

ذات يوم، كان شـيرويه يمشـي في الأسـواق؛ فرأى رجـلاً حافيًا جائعًا فأحضره وقال لَهُ: سوف أغنيك وأشبعك، وفي المقابل، أريد منك أن تقتل رجلًا حيث لا يراك أحد.

فَدَخَـل ذلك الرجل الحافي السـجنَ ووجدَ خسـرو وشـيرين نائمين على الأرض؛ فَوَضَـعَ نصل خنجره في كبد خسـرو كما أمره شـيرويه وفَرَّ من ذلك السـجن. ولّما فَتَحَ خسرو عينيه، وَجَدَ كبده ممزّقًا وعلم أنّه سيموت بعد دقائق وكان الـدم ينهمر من جسـده كالنهر، فنظر خسـرو نظرة إلى شـيرين ورآها مسـتغرقة في نومها وكأنّها تحلم حلمًا عميقًا، فقال خسـرو لنفسه: (إنَّ هذه الرحيمة لم تنم منذ ليالي؛ وحينما تستيقظ من نومها وتراني هكذا قد لا تنام ليلة أخرى، فمن الخير أن أسكت وألا أوقظها بأنيني وآهاتي)، فعض خسرو على شفته السفلى بأسنانه حتى انطفأت شمعة حياته.

و حينما اسـتيقظت شـيرين ورأت تلك الدماء على جسـد زوجها، فقدت وعيها وبكت كثيرًا وأخذت تسكب الدموع على الدماء.

وبعد عدّة أيّام، كتب شيرويه رسالة إلى شيرين قال فيها:

أنـني أحبك كثيرًا وأنتِ مقصودي في هذه الحيـاة ومرادي. عندما ينقضي هذا الأسبوع، سأجعلك وردة في بستاني.

عندمـا قرأت شـيرين هذه الرسـالة القصـيرة اضطربت نفسـها، لكنها استعادت رباط جأشها وقالت لرسول الملك:

إنَّ الملـك شـيرويه يرغب في الزواج مـنّي، فأَخبِرهُ أَيّها الرسـول، بأنني

موافقة على هذا الزواج. ولكنني أطلب من الملك ثلاثة أشياء، فإن استطاع الملك تحقيق هذه المطالب، سيجدني إن شاء الله مطيعة لأوامره.

الحاجة الأولى: أطلب من الملك أن يطلق سراحي وأن يسمح لي بالرجوع إلى غرفتي في القصر، وأمّا الحاجة الثانية فهي إرجاع كلّ ما كان لي من صامت وناطق، وأمّا الثالثة فأطلب منه أن يسمح لي بزيارة قبر خسرو وأن أحضر مراسيم جنازته.

فَلَمّا سمع شيرويه هذه الكلمات، سُرَّ كثيرًا وأَمَر بقضاء تلك الحاجات على الفور. فأمر بإطلاق سراح شيرين وبتسليم مالها إليها وسمح لها أيضًا بزيارة قبر خسرو.

فَرَجَعت شيرين إلى القصر وتصدّقت بأموالها على الفقراء والمحتاجين. ثُمَّ جَلَسَت أمام المرآة، وكحلت عينيها، وخضبت شعرها وكفّيها بالحناء، ووضعت في يديها سوارين من ذهب، ولبست أجمل ثيابها ؛ وخرجت إلى قبر خسرو كأنّها عروس في ليلة زفافها.

وكان النّاس يزعمون أنّ شيرين ليست حزينة لموت خسرو، لأنّها كانت تلبس رداءً أحمر وخمارًا أصفر وكانت تمشي خلف النعش في حبور.

وحينَما وُضِعَ جثمان خسرو في ضريح، توجهت شيرين نحو الضريح وغلّقت الأبواب ومنعت الآخرين من الدخول، ثُمَّ أخذت خنجرًا وطعنت نفسها؛ ثم ضمّت زوجها بين أحضانها ووضعت شفتيها على شفتيه وقالت:

لقد لحقت الروح بالروح

واتصّل الجسد بالجسد

فتخلّص الجسد من ألم الفراق

وتخلصت الروح من الإثم

وكانت تلك الكلمات كلماتها الأخيرة.

«راغب»: قبل أن تقص لي هذه القصة يا سيدي كنت تحدثني عن صحبة المحبين، وبعد ما سمعت هذه القصة علمت أنهم بين قاتل لنفسه ومقتول، فكيف أصحب مثل هؤلاء؟

«الفارسي»: وهل يمنع الموت الصحبة؟

«راغب»: إن لم يحل الموت بين المحبين فلا شيء سيحول بينهم.

«الفارسي»: لا يحول بين العاشقين إلا تقلبات قلوبهم.

«راغب»: أبعد أن يجد المحب حبيبه، وتذوب القلوب عشقا، يمكن أن تتقلب؟

«الفارسي»: لا يأمن مكر الحب إلا غير العاشقين.

«راغب»: ومن هذا الباب أوتي خسرو حين وافق على شرط القيصر وتزوج ابنته؟

«الفارسي»: إن تعارض الحب مع المُلك فتنة عظيمة وامتحان عسير.

«راغب»: ما ظننت أن يقبل هذا الشرط.

«الفارسي»: لا تنس أنه كان ينفذ شرط محبوبته، ولا تنس أن إرادة الملك هي التي أخرجت أبانا آدم عليه السلام من الجنة – (قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى)– وقديما قال العارفون: آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الرياسة، فما بالك بقلوب الملوك؟

«راغب»: أراك تلتمس العذر له.

«الفارسي»: لا ألتمس العذر له، ولا أدينه، إنما أضع لك الأمور في نصابها.

«راغب»: وما النصاب الذي تضع فيه قتل خسرو لفرهارد؟

«الفارسي»: الغيرة... وما أدراك ما الغيرة؟ أعنف جنود الحب وأقساها.

«راغب»: أتراها مسوغا للقتل؟

«الفارسي»: لا يسوغ سفك الدم الحرام شيء، لكن خسرو لم يقتل فرهارد، إنما قتل فرهارد نفسه.

«راغب»: ألم يكن سببا مباشرا في قتله؟

«الفارسي»: أتراه لو قدم للمحاكمة، أكان القاضي يحكم بالقصاص؟

«راغب»: لا احتمل تبرئته من الذنب.

«الفارسي»: ومن قال إن المحبين لا يذنبون، لكن لا تنظر إلى الذنب فقط إن أردت تكون منصفا، يجدر بك أيضا أن تنظر إلى الدافع، وإلى قدرة الشخص على احتمال هذا الدافع، تعرف قصة الرجل الذي ضلت عنه راحلته في الفلاة

ثم وجدها بعدما أيقن بالهـــلاك، فقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح، لو نظرت إلى الذنب وحسب لكان ما قاله كفرا.

«راغــب»: فأيهما أعظم ذنبا، فرهارد الذي قتل نفســه، أم خســرو الذي احتال على قتله؟

«الفارسي»: إذا كان خسرو قد أذنب، ففرهارد لم يذنب.

«راغب»: ألا ترى الانتحار ذنبا؟

«الفارسي»: إن كان المنتحر عاقلا، أما إن كان مجنونا فقد رفع القلم عنه، وفرهارد لا شك أن جنونه قد فاق جنون مجنون ليلى.

«راغب»: وكذلك ترى شيرين حين قتلت نفسها؟

«الفارســي»: لا. مع شيرين الأمر يختلف، فقد وضعت خطتها وأحكمتها ونفذتها، ورغم عشــقها تلحظ أنها أبدا لم تتنازل عــن عقلها، فعندما طلبها خســرو للزواج في المرة الأولى اشــترطت عليه أن يســتعيد ملك أبيه، وعندما أرسل لها يسألها الوصال سرا رفضت صونا لكرامتها، وعندما استيقظت ورأته مقتولا ذرفت دمعها لكن لم تنحر نفسها.

«راغــب»: أجل يبدو أن العشــق يذهــب بعقول الرجــال فقط، ومجانين ليلى وأخواتها قد ســودوا الكثير من صفحــات التاريخ، بينما كانت صفحات مجنونات قيس وأقرانه ناصعة البياض، بل حتى زليخة كان كيدها ليوســف عليه السلام أعظم من عشقها له.

«الفارســي»: كأنك تظن أن أثر العشــق على الرجال أشد منه على النساء، أليس كذلك؟

«راغب»: بلى. أعظم أثرا، وأشد فتكا.

«الفارسي»: لا أظن هذا.

«راغب»: فما ظنك إذاً؟

«الفارسي»: المسألة ليست في اختلاف الأثر وإنما في القدرة على الاحتمال، فالعشق هو العشق، لكن النساء أقدر على تحمله من الرجال.

«راغب»: وما أمارة ذلك عندك يا سيدي؟

«الفارسي»: ألا ترى حب الأم لأولادها وقدرتها على البذل لهم والاحتمال منهم؟ أيحتمل الآباء ذلك؟

«راغب»: اللهم لا.

«الفارســي»: فكذلك. ثم أضاف بعد برهة: الحب عاطفة والعاطفة مملكة النساء.

«راغب»: فلما قتلت شيرين نفسها إذاً؟

«الفارســي»: اختيارا لا اضطرارا، فقد فضلــت الموت بجوار الحبيب على الحياة في جوار العدو.

«راغب»: يا له من اختيار. قالها ثم دخل في صمت عميق.

أخــذ «الفارســي» ينقل بصره بــين «راغب» الغارق في صمته وبين مشــهد الغــروب الذي بدأ يرســم على الأفق خطوطه، وبعد دقائــق من التأمل، قال: هل اكتفيت؟

نظر «راغب» الإشارة إلى الأفق ثم قال: قد أذنت الشمس بالمغيب، وأحسب أنه قد حان الرحيل، لكن أصدقك القول أنني ما اكتفيت ولا ارتويت.

«الفارسي»: لكل امرئ من اسمه نصيب، فإلى أين المسير؟

«راغب»: ليتك تُنير لي السبيل.

«الفارسي»: طالما جئت أرض فارس، فعليك بأرض الروم.

* * *

الفَصْلُ الثَّالِثُ

الحكيم الرومي

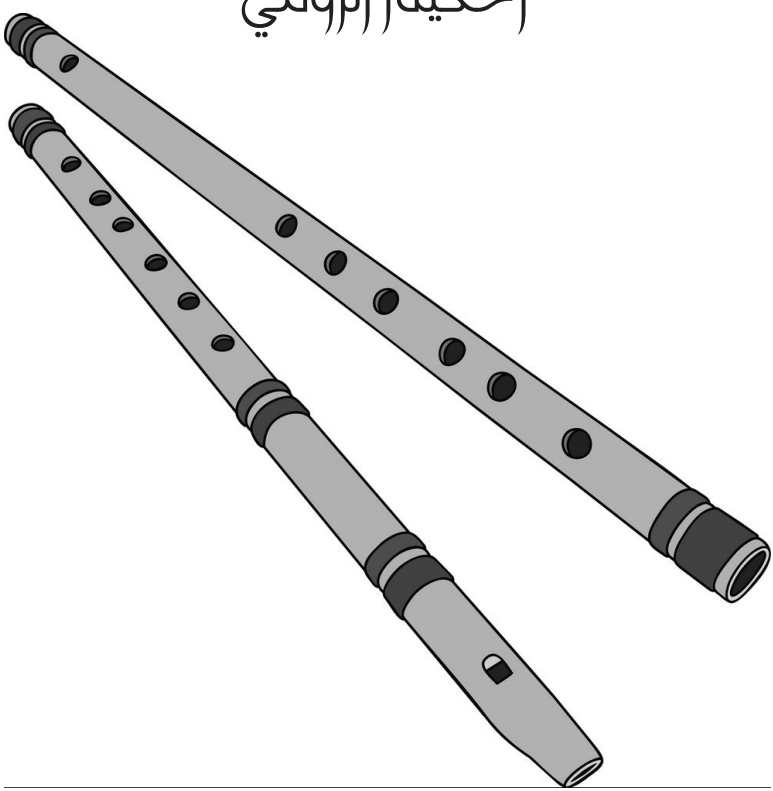

«أنصت إلى الناي يحكي حكايته.. ومن ألم الفراق يبث شكايته:

مذ قطعت من الغاب.. والرجال والنساء لأنيني يبكون

أريد صدراً مِزَقاً برَّحه الفراق.. لأبوح له بألم الاشتياق..

فكل من قطع عن أصله.. دائماً يحن إلى زمان وصله..

وهكذا غدوت مطرباً في المحافل.. أشدو للسعداء، وأنوح للبائسين

وكلٌ يظن أنني له رفيق.. ولكن أياً منهم لم يدرك حقيقة ما أنا فيه!!

لم يكن سري بعيداً عن نواحي، ولكن أين هي الأذن الواعية، والعين المبصرة؟!!

فالجسم مشتبك بالروح، والروح متغلغلة في الجسم..

ولكن أنى لإنسان أن يبصر تلك الروح؟

أنين الناي نار لا هواء..

فلا كان من لم تضطرب في قلبه النار..

نار الناي هي سورة الخمر، وحمى العشق

وهكذا كان الناي صديق من بان.. وهكذا مزقت ألحانه الحجب عن الأعيان..

فمن رأى مثل الناي سماً وترياقاً؟!.. ومن رأى مثل الناي خليلاً مشتاقاً؟!

إنه يقص علينا حكايات الطريق التي خضبتها الدماء

ويروي لنا أحاديث عشق المجنون

الحكمة التي يرويها، محرمة على الذين لا يعقلون،

إذ لا يشتري عذب الحديث غير الأذن الواعية «

مولانا جلال الدين الرومي

قبل أن تقــع عين «راغب» على «الحكيم الرومي» وصل صوته إلى أذنه، لم يكن يتكلــم بل يعزف على الناي، والألحان قد تحمل وتحتمل ما لا تحمله الكلمات ولا تحتمله، بدا العزف خافتا يأتي من مكان بعيد وكلما اقترب «راغب» ازداد اللحن وضوحا وجمالا، فشعر أنه يتحرك نحو الصوت لا سيرا على قدميه ولكن جذبا من أذنيه، فلما وصل إلى موقع «الرومي» في الغاب غاب وجلس ينصت صامتا، شــعر أنه يسمع كلاما لا يفهم معناه لكنه يحتوي مشــاعر مألوفة من الأنين والحنين، فلما انتهــى «الرومي» من العزف التفت إليه قائلا: مرحبا بالضيف.

«راغب»: شكرا لكم يا سيدي، كيف تعزفون على الناي؟

«الرومي»: هل جئت لتتعلم العزف على الناي؟

انتبــه «راغــب» إلى الهدف الذي جــاء من أجله بعد أن نســيه، وعاد إلى وعيه بعد أن غاب عنه، فقال: بصراحة لا يا ســيدي، وإنما جئت أبحث عن إجابات.

«الرومي»: كثيرون يبحثون عن الأجوبة ولا يبحثون عن المعرفة.

«راغب»: وهل تحصل المعرفة دون الحصول على أجوبة؟

«الرومي»: نعم.. فلكل لغة أسرارها، لغة السماء، لغة الماء، لغة الصحراء، لغة الأشـجار، لغة الأطيار، لغــة العيون، لغة القلــوب، وكلما تعلمت لغة ترقيت في العرفان وحصلت على إجابات لم يخطر على ذهنك الاستفسار عنها أصلا، ربما لو تعلمت لغة الناي لكفيت مؤنة السؤال.

«راغب»: بل أريد أن أتعلم لغة الحب.

«الرومي»: وهل للحب لغة يا صاحبي؟

«راغب»: أخبروني أنتم يا سيدي؟

«الرومــي»: ليس للحب لغــة، اللغة أداة بيان وتعبــير، والحب لا يُعبر وإنما يُعبَّر عنه.

«راغب»: قبــل التعبير عنه أخبرني عن الكشــف عنه، كيف أعرف أنه موجود في قلبي؟

«الرومي»: كيف تكشف عن الخوف الموجود داخلك؟

«راغب»: أنا لا أكشف عنه بل هو يكشف عن نفسه، حينما أواجه الخطر يظهر الخوف المختفي.

«الرومــي»: تقصد إذا هاجمك وحش مفترس أو عرض لك قاطع طريق أعلن

الخوف عن نفسه في تسارع ضربات قلبك واتساع حدقة عينك وانحباس صوتك وانكتام نفسك، أليس كذلك؟

«راغب» بلى.

«الرومـي»: فكذلك الحب، فـإذا صادفت المحبـوب وتعرفت عليه ظهر الحب في دقة قلبك ونظرة عينك وخشوع صوتك ورجفة يدك.

«راغـب»: تعني لا يشـعر المـرء بالحب ولا يعـرف مذاقـه إلا إذا رأى المحبوب؟

«الرومي»: نعم هذا ما أعنيه، إذا رأيت الذي تحب شعرت بالحب طالما هو حاضر فإن غاب المحبوب عن الظهور زال من القلب الشعور، فإن استطعت أن تحب كل من حولك وكل ما تراه عينك استمر الحضور والشعور.

«راغب»: إذن فالحب حال عارض وليس مقام دائم.

«الرومي»: هذا إذا كان محبوبك من الآفلين.

«راغب»: فعلي إذا أردتُ النعيم المقيم ألا أحب الآفلين.

«الرومي»: هذا هو الحب على ملة أبيك إبراهيم الخليل.

«راغب»: فما بـال قيس وكُثير وجميل، غابـت محبوباتهن أحيانا وظل حبهن في قلوبهم حاضرا في كل حين؟

«الرومـي»: بـل ظل الشـوق إليهن يفتك بالقلـوب ولذلك كانـوا يعانون ويتعذبـون ولو كن حاضرات في مهجهم لأصبحـوا في النعيم يتقلبون، ما ظنك بأمرؤ يحمل حبيبه في قلبه، هل يؤرقه الوصل أو يضنيه الشوق؟

«راغب»: أوليس الحب والشوق متلازمان.

«الرومي»: الحب نور والشوق نار، وقد يسبب النور حرقا وقد تصبح النار سلاما وبردا.

«راغـب»: وعندها يغني الحبيب لحبيبه شـاديا: (حبـك نار مش عايز اطفيها ولا أخليها دقيقة تفتني ما أحسش بيها).

التقط «الرومي» الناي وعزف عليه ذات المقطع من اللحن الشهير الذي ذكره «راغب» ثم تبسم قائلا: إذا كانت هذه ناره فكيف بنوره.

«راغب»: تريد أن تقول يا سيدي إن الحب لذة بلا ألم، وسرور بلا آسى، وراحة بلا تعب! فأين بكاء المحبين وأنين العاشـقين وشكاوى المتيمين؟ أين كل ما نثره الأدباء ونظمه الشعراء من العناء والبلاء من الحب وفيه؟

«الرومـي»: ليس في ذات الحب بلاء ولا منـه العناء، وكل ما ذكرت إنما قيل في بعد الوصال وتغير الحال وألم الفراق أو في قسوة المحبوب وجفوته أو في الحرمان منه والانصراف عنه وما إلى ذلك، أي يمكنك أن تقول إنها ضريبة حب الآفلين، هل وجدت من يئن ويشـكو من حب الله ورسـوله؟ ثمرة الحب حُلـوة ولا يمكن أن تكـون مُرة، ثلاث – كلهن حب – مـن كن فيه وجد بهن حـلاوة الإيمان، نعم أثناء الترحال تكثر الأهوال فالسـفر قطعة من العذاب،

وإذا أحــب الله العبد ابتلاه ليحرره مما ســواه لكــن إذا صبر المحب وأخلص ووصل نال المُنى وزال العنا وآثر الرفيق الأعلى على كل زهور الدنى.

«راغــب»: فما الحكمة من حب البشــر طالما لن يخلُ حبهم من الكدر؟ ولما جعله خير الأنام شرطا للإيمان ودخول الجنان؟

«الرومي»: الحب بين البشــر يجعلك تتذوق شيئا من حلاوة الحب يدفعك حثيثا للحب الحقيقي الباقي فتترقى في درجاته، وما فيه من الكدر يمنعك من الوقوف عليهم والاكتفاء بهــم، ولذلك كل علاقات الحب بين الناس في الدنيا تنقلــب كراهيــة وعداوة في الآخــرة إلا إذا أضيف رابط سمــاوي لتلك العلاقة الأرضية يؤهلها للاستمرار في الآخرة.

«راغب»: ذكرت يا سيدي أن ثمرة الحب حلوة، فما هي تلك الثمرة؟

«الرومي»: ليست ثمرة يا صاح بل ثمار، أرادت أم حارثة – رضي الله عنها وعن ولدها – أن تصبر نفسها على فقد ابنها فسألت نبيها – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أن يخبرها هل هو في الجنة؟ فأجابها الرءوف الرحيم: أوَجنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى.

«راغب»: وما له لا يصيب الفردوس الأعلى منها وهو من شــهد له الصادق الأمين بأنه أمرؤ نور الله قلبه، ولنعد إلى السؤال، فما تلك الثمار أو الجنان؟

«الرومي»: عطاء بلا حدود، وذكر بلا فتور، ومسامحة بلا شروط، واقدام بلا تردد، ونشوة بغير سكر، وخدمة بغير ضجر، وطاعة بلا تكلف.

«راغب»: تلك سبع جنان فأيها الفردوس الأعلى؟

«الرومي»: ثامنة حسنة جميلة، رضا بلا سخط.

«راغب»: تلك التي لم يستطعها كثير من الشعراء.

«الرومي»: بعضهم قطف شيئا من تلك الثمرة حين قال:

إن شئت تقتلني فأنت محكم من ذا يطالب سيدا في عبده

«راغب»: هذا البيت من ثمرة الرضا عن المحبوب مهما قضى أو حكم، فماذا عن ثمرة الطاعة؟ قد يطع المرء من يحب ومن لا يحب أليس كذلك؟

«الرومي»: ثمرة الطاعة قد تنتج من بذرة الحب وقد تنتج من بذرة الخوف وقد تنتج من بذرة الطمع.

«راغب»: وما الفرق بين الطاعة الناشئة عن الحب وتلك الناشئة عن الرهب أو الرغب؟

«الرومي»: الطاعة الناتجة عن الخوف أو الرجاء تحتاج إلى الكثير من الكلفة والمجاهدة للبدء فيها والدوام عليها، ويعتريها العديد من المكدرات أثناء القيام بها، أما الطاعة الناشئة عن الحب فكما أخبرتك هي طاعة بلا كلفة ولا كدر.

«راغب»: ألا يقدح في الطاعة أن يكون الدافع إليها الخوف والطمع؟

«الرومي»: بلى إن كانت في حق البشر لأنهم كلهم لآدم وآدم من تراب، فما الذي يدفع إنسانا للخوف من إنسان مثله أو الطمع فيه إلا خسة في الطبع

أو ضعف في اليقين أو ما إلى ذلك، أما في حق الله تعالى فالأمر على الضد فمن لم يخف مقام ربه ويأمل في رحمته وإحسانه فهو عبد سوء.

«راغـب»: لكن الطاعة الناتجة عن الحب أرفع وأرقى وأفضل وأعلى أليس كذلك؟

«الرومي»: كلا ليس كذلك إلا إذا كان الحب مكملا ومتمما للخوف والرجاء وليـس بديلا عنهما، فإن كانت الطاعة ناشـئة عن الحب فقط فما أظنها تخلو من حظوظ النفس.

«راغـب»: فأي المقامات أفضل وأيها إن خُيرت اخترت؟ الحب أم الخوف أم الرجاء؟

«الرومـي»: إن كان الحب لله والخوف مـن الله والرجاء في الله فأنت مع الله في كل حـال، فاختر ما اختاره الله لك وارض به واحمده على المقام الذي بلغته يبلغـك المقام الذي لم تبلغـه، يريد العباد أن يعبدوا ربهم على حال واحدة – يحسبونها الفضلى – والله يريدهم أن يعبدوه على كل حال.

«راغـب»: وهـل يتعارض الرضا مع الطلب يا سـيدي؟ أنا مذ أربعة عقود أعامل الخلق ورب الخلق بالعقل وعندما شـعرت أن طائرة الحياة أوشكت على الهبـوط، ووجدت أن معاملات العقول لم تشـبع الفضـول ولم تحقق المقصود اشتقت إلى معاملات القلوب وقلت لعل وعسى أدرك المطلوب.

«الرومي»: العقل يتأرجح بين الحكمة والهوى، والقلب يتقلب بين الحب والعمى، والنفس تتردد بين السخط والرضا.

«راغب»: نعم يا سـيدي فهمت أن آفة العقل الهوى، وآفة القلب العمى، لكني حسبت أن آفة النفس الأمر بالسوء وليس السخط؟

«الرومي»: وهل يدفع إلى الأمر بالسوء إلا السخط؟ الأمر بالسوء شأن النفس السـاخطة أبدا تأمر وتطلب وتُحَصِّل ولا تشبع ولا تقنع ولا ترضى البتة، يظن صاحبها أنه إذا اسـتجاب لها ضعفت وسـكتت عنه وأعتقـت رقبته فإذا بها قويت وتمكنت منه واسـترقته، اللهم صل على من علمنا أن نسـألك نفسا هي بك مطمئنة تؤمن بلقائك وتقنع بعطائك وترضى بقضائك.

«راغب»: اللهم صل على سيدنا محمد وآله وسلم.

«الرومـي»: أنت تتحدث يا ولـدي وكأن القلب الة تعمل بالأزرار، تضغط زرا فتتوقف عن العمل وتعطي اليد العليا للعقل ثم تضغط زرا أخرا فيبدأ دور القلـب في المعاملة ويتنحى العقل جانبا، الأمر ليس على هذا النحو، كف عن محاولة عقلنة القلب ودعه ينطلق.

«راغب»: كيف ينطلق؟ ليته يفعل.

«الرومـي»: القلـب المادي لا شـيء يوقفه عن النبـض وإذا توقف عن ضخ الدم مات، وكذلك القلب المعنوي لا شـيء يوقفه عن العشق وإذا توقف عن ضخ الحب مات، قلبك يفعلها يا صديقي لكنك لا تشـعر به، فإن أردت أن تشـعر به فانصت إلى نصيحة الناي.

نطـق الرومـي بالعبارة الأخيرة وبدا كأنه يصغـي إلى عزف ناي يأتي من

بعيد ثم أخذ يتلو نصيحته جملة جملة بسكينة وروية كأنما يترجم ما أخبره به الناي:

كُن في الحُبِّ كالشَمس

كن في الصداقة والأخوَة كالنَهر

كُن في ستر العيوبِ كالليل

كن في التواضعِ كالترابِ

كن في الغضب كالميت

وأيًا كنت من الخلائق..

إما أن تبدو كما أنت..

وإما أن تكون كما تبدو.

«راغب»: ما بالي كلما طرقت باب حكيم أسأله شربة ماء يطالبني بنهر أو أسأله نسمة هواء فيطالبني بعاصفة هوجاء، يا سيدي أنا أملي أن أكون في الحب كالشمعة وأنت تريدني فيه كالشمس ! أنى هذا !

« الرومي»: مشكلتك يا عزيزي أنك لا تعرف الذي تبحث عنه، تحسب أنك تبحث عن الحب بينما في الحقيقة أنت تبحث عن تجليات الحب في قلوب من سبقوك وانعكاساته في حيواتهم، أنت تبحث عن أشعار فلان وأشواق علان وبكاء هذا وشطحات ذاك، تظن أن تلك الأحوال هي عليه البرهان، فإن حصلت

فهي دليل صدقك فيه، وإن لم تحصل فهي دليل فقدك له، وما هي في الحقيقة بحقيقة الحب ولا هي عليه بدليل، إن هي إلا صور ولها ألف بديل، فليس كل من عشــق وأحب نظم الشــعر وفقد العقل، وليس كل من بكى وانتحب أحب، وإن جاز التقليد في الفقه فهو ممتنع في العشق.

«راغــب»: لعلك على حق يا ســيدي، ولكن ماذا علــيَّ أن أبدأ مقلدا إلى أن اســتوي على ساقي؟ وما علي إن لم أكن مثل القوم أن أتشبه بهم؟ أليس جميع الفقهاء المجتهدين بدأوا كمقلدين؟

«الرومي»: بلى ولكن الأمر في العشق يختلف ولذلك أخبرتك أن التقليد إن كان في الفقــه مطلوب فهو في الحب غير مرغوب، وإلا فأخبرني بربك هل بدأ مجنون لبنى بحب ليلى ثم اســتقل بمذهبه في الحب؟ وهل أحب عنترة سلمى ثم أصبح من المجتهدين في حب عبلة؟ وهل بدأ جميل بعشــق عزة ثم نشــا في الحشــا عنده حــب بثينة؟ يا ولدي الحقيقة واحدة لكن لها اشــكالا متعددة، والحــب كالحق واحد لكن له ألف صورة، وإن شــئت قلت الحب كالمطر يروي الأرض فتنبت نباتا مختلفا ألوانه، يسقى بماء واحد ونفضل بعضه على بعض في الأكل، ومــا لبنى وليلى وســلمى وعزة وبثينة وعبلــة إلا تجليات لحقيقة واحدة وأعراض لجوهر واحد، فابحث عن جوهر الحب لا عن وصفه ورسمه.

«راغب»: ولكن عنترة وجميلا وكثيرا والقيســين عبروا عن تلك التجليات والصور بطريقة واحدة حتى أننا قد نســمع البيت من القصيدة فلا ندري أقاله مجنون ليلى أم مجنون لبنى.

«الرومي»: متشابها وغير متشابه، صنوان وغير صنوان، وتبقى ليلى غير لبنى، ويبقى قيس الأولى غير قيس الثانية.

«راغب»: حيرتني يا سيدي.. ما جوهره وما وصفه ورسمه؟

«الرومي»: تذكر حديثنا عن الخوف، فدعنا نتحدث عن الحزن، كيف تعرف أن هذا بائس أو أن ذاك حزين؟ أيكفيك البكاء كدليل؟

«راغب»: لا. فالناس يبكون لأسباب شتى، صحيح أن الحزن من بينها لكن قد يبكي المرء لغير حزن وقد يحزن المرء بغير بكاء.

«الرومي»: وكذلك السرور والضحك، وكذلك الصراخ والغضب، وكذلك الحب حقيقته وجوهره ميل القلب إلى المحبوب وتعلقه به، أما أعراضه وصوره فحدث ولا حرج، بل إنك لو جمعت المتضادات وأتيت بالمتناقضات فلن تخرج عن دائرة الاحتمالات والجائزات فيه.

«راغب»: كلامك يا سيدي يهون كثيرا من مسألة الحب ويجعلها في متناول الجميع بعدما ظننت دهرا أنها عملة نادرة لم تتداولها إلا قلوب المشاهير من العاشقين، ولم تصرف إلا من مهجهم.

«الرومي»: هي كذلك وهي أيضا في متناول الجميع شأنها شأن جميع النعم القلبية والعقلية والبدنية، الخلق عامة لهم نصيب من الحب والذكاء والقوة ولكننا إذا تحدثنا عن الحب ذكرنا ابن الملوح وأضرابه من المجانين، وإذا تناولنا الذكاء ذكرنا اينشتاين وأمثاله من العلماء والمخترعين، وإذا تكلمنا عن القوة ذكرنا شمشون وأنداده من الجبارين، هذا من باب ضرب الأمثال واختيار

من تجسدت فيهم تلك الصفات والمعاني بأجمل صورها وأوضح أشكالها، وليس من باب الحصر، صحيح أن هناك من البشر من ليس لهم حظ من القوة أو الذكاء أو الحب لكن كم نسبتهم؟

«راغـب»: معنى هذا أنني قد أكون محبا ولكني لا أشـعر بهذا الحب إذا قارنتـه بحب قيس لليلى، كمـا أنني اتمتع بقدر من الـذكاء لكن إذا قارنته بذكاء اينشـتاين عددت نفسـي غبيا، وهكذا أرى نفسـي قاسـي القلب بليد اللـب، فمـا الطريقة المثلـى للتعامل مع تلـك المعضلة؟ هل أخـرج هؤلاء من دائرة التمثل والتأسـي فأقنع بما عندي وأنعم بقدر من الحب يتمثل في حسـن معاملة من أحبهم، وبقدر من الذكاء يتح لي نجاحا متوسطا في حياتي المهنية والاجتماعية؟ أم أصر على أن أذق ما ذاقوا وأنل ما نالوا فلا أنعم وإنما أعاني؟

«الرومي»: حسـن المعاملة لا يعبر عن الحب، فنحن مأمورون بالإحسـان إلى مـن نحب ومن لا نحـب، وإذا قتلتم فاحسـنوا القتلـة، والنجاح المهني والاجتماعـي لا يدل على الذكاء فكثيرون مـن الناجحين الأثرياء من أصحاب الذكاء دون المتوسـط، الـذكاء لا يمنحك نجاحا وإنمـا يمنحك فهما، والحب ليس إحسـانا إلى المحبوب وإنما ميلا إليه وتعلقا به، وكلما ازددت ميلا كلما ازددت امتلاء حتى لا يبقى لنفسـك في قلبك محـل، وكلما ازددت تعلقا كلما ازددت اقترابـا والتصاقـا حتى لا يبقى بينك وبينه بين، وحل المسـألة التي أعضلتك ليس بطرد المحبين والحكماء من دائرتك وإنما اقتدِ بهم ولا تقلدهم، إنـك مهما فعلت فلن تكرر نظم قصائد ابـن الملوح ولن تعيد وضع نظريات ابن

اينشـتاين، وما الفائدة لو أنشد عاشـقين نفس القصيدة في ليلى العامرية؟ وما المحصلة لو اكتشف عالمين نظرية النسبية؟

«راغـب»: أجل.. وأيا كنت مـن الخلائق، إما أن تبدو كما أنت، أو إما أن تكـون كما تبدو.. لكن يا سـيدي العلائق تمنع الامتـلاء والعوائق تحول دون الاقتراب.

«الرومـي»: يحكى أن أحد العارفين مر في سـفرة على شـاب حزين عاكفا على أصل شجرة لا يغادر مكانه، فسأله عن شانه، فقال: كان لي حال مع الله فقدته في هذا المكان فلا أبرح حتى استعيده. وفي طريق عودته من سفره وجد نفس الشـاب في نفس المكان وقد انقلب حزنه فرحا وقبضه بسطا، فأعاد عليه السؤال، فأجاب: وجدت ما فقدت فلا أبرح المكان الذي استعدت فيه حالي مع الله. فقال العارف: فلا أدري أي المقامين أشرف.

«راغب»: نعم أي المقامين أشـرف؟ الصبر على الفقد أم الشكر على الوجد؟ لكن أليس في كلا الحالين يحتاج المرء إلى شيخ يسير خلفه خطوة بخطوة حتى يجتاز المفازة ويصل إلى العمران، أو يبحر وراءه عقدة بعقدة حتى يعبر البحر إلى بر الأمان؟

«الرومي»: ما زلت تدور في فلك التقليد، لو سرت خلف الشيخ ضللت ولو أبحرت وراءه غرقت، ليس عمل الشـيخ أن يسير بك في طريقه وإنما دوره أن يرشدك إلى طريقك، فعدد الطرق بعدد الخلائق، ولكل واحد طريق واحد.

«راغب»: إذن فدور الشـيخ أعظم بكثير مما يظن، ومهمته أصعب بمراحل

ممـا يخال، فكل أحد يمكنـه أن يدلك على طريقه لكن لا أحد يمكنه أن يدلك على طريقك أنت إلا إذا كان يبصرها من بين عدد لا حصر له من الطرق.

«الرومي»: أجل، فالشـيخ لا يقول لك افعل مـا أفعله ولكن افعل ما أقوله لك، وبمعنى أخر اتبعني ولا تقلدني.

«راغب»: فما قولهم إن عدد الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق؟

«الرومـي»: دقات قلب المرء تقول له: إن الحياة دقائق وثوان، فالمرء يحيا في الدنيا عمرا واحدا لكن هذا العمر يتألف من أعوام وشـهور وأيام وسـاعات ودقائق وثوان، وكما أن لكل إنسان حياة واحدة تتألف من أنفاس كثيرة فكذلك لـه طريق واحدة تتألف من خطوات كثيرة، وكما قال ابن عطاء السـكندري: مـا من نفس تبديـه إلا وله فيك قدر يمضيه، ومع كل نفـس يتجدد عطاء الله لك ويتغير فيك شـيء ويتبدى لك حال، فإن استطعت في كل نفس أن تتعرف على حالك مع المحبوب وتسـير إليه وفق هذا الحال فافعل، فإن كانت حالك المعصية فسـر إليه بالتوبة والاسـتغفار وإن كانت حالـك الطاعة فأقبل عليه بالشـكر والاصطبار، وإن كان شـأنك الجهل فاسـلك طريق العلم، وإن كانت حالك الغفلة فالزم طريق الذكر.

«راغـب»: بل أريد طريق الحـب، وما حالي إلا قول الشـادي الغريب: عطشان يا صبايا دلوني على السبيل.

وكعـادة «الرومـي» كلما ذكر «راغـب» بيتا أجابه بنغمـه، فالتقط الناي وأنشد:

عطشان يا صبايا دلوني ع السبيل

عطشان والنيل حدانا والميه حدانا كتير

عطشان يا صبايا دلوني ع السبيل

ماهو السبيل قدامك واتزحزح يا رذيل

«راغب»: ما أندى صوتك وما أجمل عزفك وما أطرف إشارتك يا سيدي، وإني وإن كنت من بلد النيل وإن كان أمامي السبيل، فأنا ضعيف مسكين، فلا يناسب حالي من المعاني إلا أضعفها، وقد علمت أضعف الإيمان وعملت به فدلني على أضعف الحب لعلي أشعر به.

«الرومي»: أضعف الحب أن تحب المحبوب لإحسانه إليك وأياديه عليك وعطاياه لك.

«راغب»: ولما كان هذا النوع من الحب أضعفه؟

«الرومي»: لأنه في استطاعة كل أحد، حتى الأطفال والحيوانات، فالناس مجبولون على حب من يحسن إليهم ويعطيهم ولا يمنعهم، وهذا النوع من الحب لا يثبت طويلا ما لم يعرفوا المنعم معرفة وثيقة ويدركوا مغزى النعمة إدراكا عميقا ولهذا كان هذا النوع من الحب هو الحب الطفولي، ألا ترى إلى الطفل إن أعطيته هش وبش لك وأحبك وإن منعته حزن وجزع وشعر أنك ظلمته؟ فإذا ما تفتح ذهنه ونضج قلبه عاد فشكر والديه على ما منعاه بل ومنع أطفاله من مثل ما مُنع منه رحمة بهم وشفقة عليهم، فقد أدرك أن النعمة في

المنـع لا تقل عن النعمة في المنح، وهـذا ما بدأ به المحب الأعظم ﷺ حـين حدث الناس عن حب الله تعالى فقال: ﴿أَحِبُّـوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ﴾.

«راغب»: إذا كان هذا أضعف الحب وأدناه فما أقواه وأعلاه؟

«الرومي»: أصعب الأشياء وأقساها على النفوس الانتظار والاختيار، وأشد منهما تركهما، فإن اسـتطعت أن تعشـق بلا انتظار ولا اختيار فقد وصلت إلى أسمـى معاني الغـرام، ألم تر إلى الرجل الذي قـال للنبي ﷺ: إني أحبك، فقال له: استعد للفقر، فقال الرجل: فإني أحب الله، فقال النبي المعلم المبجل ﷺ: استعد للبلاء.

«راغب»: ما أصعب هذا الكلام! كيف أحب بلا انتظار؟ وكيف أعشق بلا اختيار؟ ما المقصود بهذا؟

«الرومي»: المقصود هـو والمطلوب هو، المقصود أن يكون حبك بغير انتظار لعطـاء أو وصـال، ودون طمع في وعد أو إحسـان، وبلا أمـل في نظرة أو كلام، المقصـود أن يكون عشـقك بلا اختيار منـك لك، ودون تصور لحـال أو مقام، وبغير إرادة لشـكل من الأشـكال أو لون من الألوان، ولعل هذا هو سر الوصية بالاسـتعداد للفقر والبلاء، فالفقر التام يحـررك من الانتظار، والبلاء الكامل يحررك من كل اختيار.

«راغـب» ملتاعا: يا ليت أمي لم تلدني... وهل هذا بحب؟ هل هناك حب بلا وصال؟ هل هناك بشـر بلا اختيار؟ هل هناك إنسـان بلا إرادة؟ إن لم يكن

هذا المحال فلا محال... ألم تخبرني أنه ليس في الحب بلاء ولا منه عناء.

«الرومي»: رغم أن أسئلتك كلها استنكارية فسأفترض أنها استفهامية وإليك جوابها، سألتني: هل هذا بحب؟ والجواب: ليس هذا بحب هذا أرفع وأقوى درجات الحب، فإن لم تستطع تصوره فلا تنكر وجوده. وسألتني: هل هناك حب بلا وصال؟ والجواب: ألا تعجب من حب مغيث لبريرة ومن بغضها له، فأخبرني يا صديقي متى وصلت بريرة مغيثا بعد أن فارقته؟ والجواب أنها لم تصله ومع ذلك لم يفارقه حبها. وسألتني عن الإرادة والاختيار؟ والجواب: إنك إذا امتلأت بحب المحبوب فقدت الاختيار واصبح ما يختاره لك وحده الخيار، وإذا فنيت نفسك فيه فقدت الإرادة، لأنه إذا فنيت النفس فنيت إرادتها معها. والجواب على السؤال الأخير: بلى أخبرتك أنه ليس في ذات الحب بلاء ولا منه عناء أي في جوهره وحقيقته وليس فيما يحيط به من الملابسات، كما أخبرتك أيضا أن في الترحال تكثر الأهوال، فلما تشبثت بالأولى وأفلت الثانية؟ لا بلاء إذا تحررت من الاختيار، ولا عناء إذا تخلصت من الإرادة، إنما يأتي العناء من عجزك عما تريد.

«راغب»: الآن فقط فهمت معنى: إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي... دعاء لا تسمع فيه صوت انتظار، ولا ترى فيه صورة اختيار، وإنما تشعر فقط بمحض الافتقار.. ولكن..

تبسم «الرومي» وقاطعه قائلا: إياك ولكن...، لا تعارضني بما جاء في سيرة المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو ما ورد في سنته من مواقف أو أقوال فيها اختيار أو طلب أو انتظار، فبحر الحبيب الأعظم لا ساحل له وعمقه لا قعر له، وما

تجلى الله تعالى على خلق من خلقه باسمه الواسع كما تجلى على خير الخلق وأوسعهم فضلا وكرما وعلما وعدد ما شئت من حميد الخصال ولا تبالي.

«راغب»: وبالتالي ما تناولناه آنفا كان لونا واحدا من ألوان الحب لا ينفي غيره من الألوان، ودرجة من لا درجاته لا تمحو غيرها من الدرجات، وسيرة الخاتم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسنته تتسع لجميع الألوان وتشتمل على كافة الدرجات، أليس هذا ما قصدته يا سيدي؟

«الرومي»: بلى هذا ما قصدته وهذا هو سر اختلاف أمته، فبحره لا تسعه جداولهم، وكل فرد ينهل بقدر وسعه، وكل فرقة تحصل على قدر طاقتها.

«راغب»: لكن الاختلاف شر.

«الرومي»: ألم أحذرك من لكن؟

«راغب»: حذرتني منها لكن لا مفر منها.

«الرومي»: الاختلاف آية من آياته، انظر إلى اختلاف الليل والنهار، تأمل في اختلاف ألواننا وألسنتنا، أخبرني أيهما أفضل العربي أم العجمي؟ الأبيض أم الأحمر؟ وأيهما أجمل البر أم البحر؟ النهار أم الليل؟

«راغب»: بل أخبرني أنت طالما الاختلاف بهذا الجمال، مَن مِن الفرق هي الناجية إذن؟

«الرومي»: الفرقة الناجية التي ترى أخواتها السبعين على حق، وتلتمس لهم العذر، ألم تصلك وصية التمس لأخيك سبعين عذرا، فإن أخذت بها

تحصل لديك سبعون فرقة، فإن حققت كمالها وقلت لعل لهم عذرا لا أعلمه زدت على السبعين، وتذكر أن الصادق الأمين أراد أن يزيد في الاستغفار على السبعين عسى أن يتوب الله رب العالمين على عباده المنافقين.

«راغب»: كيف يكونون على حق وقد شهد لهم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنار؟ كيف يكون القادياني الذي ادعى النبوة والبهاء الذي ادعى الربوبية على حق؟

«الرومي»: لم يشهد لهم بالنار لأن هذه الزيادة (كلهم في النار) لم تصح، ومع هذا هل هذان من أمته؟ إذا فالأسود العنسي ومسيلمة الكذاب من أمته أيضا، كل فرقة ترى نفسها على الحق وكل أخواتها على الباطل لا شك هي في النار، نار فساد ذات البين، نار التدابر والتباغض، نار الضغينة والشحناء، نار الكراهية والاعتداء، والفرقة الناجية هي التي على ما كان عليه المصطفى وأصحابه، وما كان عليه المصطفى وأصحابه يسع الجميع، فلعل الفرقة الناجية حقا هي مَن ترى أن الكل كذلك وأن الكل قد أصاب من الحق جانبا و نال من الحب حظا وافرا.

«راغب»: وماذا عن الخلاف في الفكر والسياسة والحب؟

«الرومي»: الخلاف في تلك الأمور كلها فرع عن الاختلاف في أصول الفقه والعقيدة فنقول فيها ما قلنا فيه.

«راغب»: لكن ألا يرجع الخلاف العقائدي في الأمة إلى الخلاف السياسي فكأنه بالتالي فرع عنه لا أصل له كما ترون أنتم يا سيدي.

«الرومـي»: نعم هذا الكلام صحيح من حيث الترتيب الزمني، فلم يُعرف في تاريخ المسلمين الشيعة والخوارج كحزبين أو طائفتين أو فرقتين على سبيل المثال إلا بعد النزاع السياسـي بينهم واختلافهـم في قضية التحكيم، لكن من حيث الترتيب المنطقي فإن المواقف السياسـية تنشـأ عن التصـورات المعتقدة والأفكار المعتنقة لا العكس وإذا دققت وجدت أن أصول كلا الفريقين كان سابقا علـى يوم صفـين، ومنهجية تفكير ذي الخويصرة وابن سـبأ كانت معروفة، وإنما جاءت الأحداث والملابسات لتبلور تلك المناهج وتظهرها لا لتنشئها.

«راغب»: أتفهم أن يكون الخلاف الفكري انعكاسـا للخلاف العقدي، وأن يكون الخلاف السياسـي فرعا عنه أيضا، لكـن كيف يكون الخلاف في الحب فرعا عن الخلاف في العقيدة؟ ما العلاقة؟

«الرومـي»: إن لم يكن بين الحب والإيمان علاقة فبما تفسـر حديث أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله؟ الشـعور ثمرة التصور كما أن الذوق ثمرة الحس، فالبشـر يتذوقون بكل حواسهم، روعة الصور بالبصر، وعذوبة الأصوات بالسـمع، وطيب الروائح بالشـم، ونعومة الأجسام باللمس، ولذيذ الطعام باللسـان، وكذلـك يتذوقون المعـارف بالعقل، والشـهوات بالنفس، والمشـاعر بالقلب، والأسـرار بالروح، وكما تختلف الأذواق المادية باختلاف الحواس البشـرية تتباين الأذواق المعنوية بتباين اللطائف الإنسانية، الشيعة اعتقـدت أن عليا رضـي الله عنه وصي النبي فأحبوه وعلى الشـيخين فضلوه، والخوارج تصورت أنه خائـن للقرآن بقبوله تحكيم الرجال فأبغضوه وبعد أن

رموه بالكفر قتلوه، إذا كان تصورك عن المحبوب شـائها واعتقادك فيه سلبيا فكيف يمكنك أن تقع في هواه؟

«راغـب»: لعل هذا يفسـر قول بعضهم في حق سـيد الخلق: أتيته وليس شخص أبغض إليَّ منه وتركته وليس شخص أحب إليَّ منه.

«الرومـي»: نعم تغير اعتقاده في الحبيب فقفـز من حضيض الكراهية إلى قمة الحب، فبقدر اعتقادك يكون حبك، وبقدر اعتقادك يكون انتفاعك، فوثق اعتقادك فيمن تحب في صديقك أو مرشـدك أو شيخك تنتفع به، وأحسن ظنك بربك تجده عند حسن ظنك به.

«راغب»: أيحتاج المرء لشـيخ في الحب كما يحتاج لشيخ في الفقه وشيخ في التزكية؟

«الرومي»: الحب أحلى ما في التزكية، وهو أولى بالتعليم من الفقه، فالمرء مع من أحب، فإن احتجت للشيخ في الفقه والتزكية فأنت له في الحب أحوج، ولكني أصدقك القول ليسـت المعضلة في الشـيخ بقدر ما هي في المريد فإن أردت الحق لن يضرك أن تتعلم من الباطل، وإن طلبت الحب فلن يشينك أن تتعلم من المجنون، وإن قصدت الله فلن ينتقص منك أن يكون شيخك في لحظة ما شيطان ألم يتعلم الصاحبي من الكذوب.

أخذ «الرومي» نفسا عميقا ثم أخرجه بطيئا وقال: أيهما أقدر على تعليمك الحب الشيخ أم المحبوب ذاته؟ فاجعل محبوبك شيخك يجتمع لك البحران، وعندها يصير الحب البوصلة والرياح.

«راغب»: إن أصبح الحب هو البوصلة والرياح فما دوري أنا حينئذ؟

«الرومي»: دورك حينذاك أن تنصب شراعك لتجري في بحره وتمسك الدفة بكل قوتك لئلا تنحرف عن وجهتك.

«راغب»: إذاً أنا في حاجة إلى دفة وشراع لتكون لي سفينة، والسفينة تحتاج إلى بوصلة ورياح لتجري في البحر، والحب هو البوصلة والرياح، والحب يحتاج إلى محبوب، فهل أبحث عن الحب أم أبحث عن المحبوب؟

التقط «الرومي» الناي كعادته كلما أراد أن يوصل لمحاوره المعني متوشحا بوشاح من التراث الثقافي الذي نشأ فيه، مصحوبا برقة الحس وجمال المشاعر، وأخذ يعزف لحنا مألوفا ثم أنشد بصوته الشجي:

على بلد المحبوب وديني

زاد وجدي والبعد كاويني

يا حبيبي انا قلبي معاك

طول ليلي سهران وياك

تتمنى عيني رؤياك

أشكي لك وأنت تواسيني

يا هنايَ لما افرح بيك

و اتهنى بقربك وأناجيك

وعينيَ تبقى في عينيك
احكي لك وانت تراعيني

أنهى «الرومي» أنشودته ووضع الناي بجانبه، ونظر إلى رفيقه وهو يجفف دمعتان جرتا من عينيه رغما عنهما، ثم قال: لن تجد الحب ما لم تجد المحبوب.

«راغب»: ليته يبحث عني كما أبحث عنه، ليته يجدني قبل أن أجده فيريحني.

«الرومي»: لعله وجدك منذ زمن وأنت لا تدري، ولن تدري أنه وجدك إلا إذا وجدته.

«راغب» وقد شعر بقرب انتهاء اللقاء: أوصني يا سيدي.

«الرومي»: وصيتي لك إذا وجدت المحبوب وطرقت بابه أن تذكر هذه القصة: قدم رجل وطرق باب صديق، فقال الصديق: من أنت أيها المفضال؟ فأجاب الرجل: «أنا» فقال الصديق: اذهب فالوقت غير ملائم، وليس للغّر مكان على مثل هذا الخِوان ! وماذا يُنضج الغرّ سوى نار الهجر والفراق؟ وأيُّ شيء (سواها) يخّلصه من النفاق؟. فذهب هذا المسكين، وقضى عاماً من السفر، فاحترق بشرر من فراق الحبيب، ونضج هذا المحترق فعاد، ودار مرة ثانية حول منزل صديقه، ثم طرق الباب بمزيد من التّهيب والأدب، حتى لا تنطلق من بين شفتيه كلمة خالية من الأدب. فهتف صديقه قائلاً: من بالباب؟ فقال الرجل: أنت بالباب، يا مليك القلوب ! فقال الصديق: الآن، ما دمت أنت

أنا، فادخل يا أنا، فالدار لا تتسع لاثنين كل منهما يقول: «أنا».

«راغب»: التحلي بالأدب، والتخلي عن «أنا»، ويا لها من وصية.

شـكر «راغب» «الرومي» وودعه، وانطلق يفتـش عن باب الحبيب ليطرق بابه، وبينما هو يبتعد رويدا رويدا كان يصغي إلى أنشـودة «الحكيم الرومي» الأخيرة.

اللّه الحق اللّه الجمال

اللّه الحب اللّه الحنان

اللّه ربي ورب الأكوان

حميد مجيد رحيم منان

أهدانا حبيبه خير الأنام

رسولا كريما حميد الخصال

فصلوا عليه في كل حال

صلاة تليق بعظيم الشان

اللّه الخير اللّه الإحسان

اللّه النور اللّه الجلال

اللّه ربي علم القرآن

عليم قدير مجيب منان

أهدانا حبيبه نور الأكوان

بشيرا نذيرا شفيع الأنام

فصلوا عليه في كل حال

صلاة تليق بعظيم الشان

* * *

الفصل الرابع

الحكيم الشامي

هُـو ذا الفجْرُ، فقومي ننْصَرِفْ .. عـنْ بلادٍ ما لنا فيها صديقْ
ما عسـى يرْجو نباتٌ يختلِفْ .. زهْرُهُ عـنْ كُلِّ ورْدٍ وشقيقْ
وجديدُ القلْـبِ أنَّى يأْتَلِفْ .. معْ بلادٍ كلُّ ما فيها عتيقْ
هو ذا الصبحُ يُنادي، فاسمعي .. وهلمِّي نقتفي خطْواتِـهِ
قدْ كفانَا منْ مسَـاءٍ يدَّعي .. أنَّ نورَ الصُّبْحِ منْ آيَـاتِهِ!

***

قدْ أقمْنا العُمْرَ في وادٍ تسيرْ .. بيْنَ ضلعيْهِ خيالاتُ الهمـومْ
وشَهِدْنا اليأسَ أسراباً تطـيرْ .. فوق متنيْهِ كعِقبانٍ وبُـومْ
وشرِبنا السُّقمَ منْ ماءِ الغديرْ .. وأكلْنا السُّمَّ منْ فِجِّ الكرومْ
ولبسْنا الصَّبْرَ ثوْباً فالتهَـبْ .. فـغدوْنا نتردَّى بالرَّمَـادْ
وافترشْناهُ وِساداً فانقَلـبْ .. عنـدما نمْنا هشيماً وقَتَـادْ

***

يا بلاداً حُجِّبَتْ منْذُ الأزَلْ .. كيفَ نرْجوكِ ومنْ أيْنَ السَّبيلْ
أيُّ قَفْرٍ دونهـا؟ أيُّ جبَلْ .. سورُها العالي؟ ومنْ منَّا الدَّليلْ؟
أسرابٌ أنتِ؟ أمْ أنْتِ الأمَلْ؟ .. في نفـوسٍ تتمنَّى المستحيلْ؟
أمَنامٌ يتهادى في القلــوبْ .. فإذا ما اسْتيْقَظَتْ ولَّى المنـامْ؟
أمْ غيومٌ طُفْنَ في شمْسِ الغروبْ .. قبلَ أنْ يغْرقْنَ في بحْرِ الظلامْ؟

***

يا بِلادَ الفِكْرِ يا مهْدَ الأُلى .. عَبَدوا الحقَّ، وصلُّوا للجمَالْ
ما طلبْناكِ بركْبٍ أوْ على .. متْنِ سُفْنٍ، أوْ بخيْلٍ ورِجالْ
لسْتِ في الشرقِ ولا الغرْبِ ولا .. في جنوبِ الأرْضِ أوْ نحْوَ الشِّمالْ
لسْتِ في الجَوِّ ولا تحْتَ البِحارْ .. لسْتِ في السَّهْلِ ولا الوعْرِ الحَرِجْ
أنتِ في الأرواحِ أنْوارٌ ونارْ .. أنتِ في صدْري فؤادٌ يخْتلِجْ

جبران خليل جبران

أين هذا المحبوب؟ أين أرضه.. أين سماه؟ أين بحره.. أين هواه؟ متى يظهر ومتى يغيب؟ هل يسمع أو يجيب؟ ماذا ينتظر.. ماذا يريد؟ أقريب هو أم بعيد؟ بالأمس بحثت عن الحب واليوم أبحث عن الحبيب، وأنا لا أدري أيهما أشــق: البحث عن المعلومات أم البحث عن المحسوسات؟ مالي أحــس أنني روح غريب في الحياة! سمعت عن الحب كثيرا وتحدثت عنه مع الحكمــاء طويلا، والآن أريد أن ألقاه حقيقا، وانظر حالي حين يقال لي: ولقد كنتم تمنون الحب من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون.

بمثل تلك الأفكار والخواطر والآمال وصل صديقنا إلى حكيم الشام، وعندما وقــف على عتبته ألقــى بما في جعبته، وحكى له قصته، وبدا له وكأن رحلته أوشــكت على الانتهاء وأنه يطارد الأمل الأخير لعلــه ينجو من المصير، ذاك المصير الذي تنبأ به شــاعر همام من شعراء الشــام في قصيدته المشهورة قارئة الفنجان.

وسترجع يوما يا ولدي مهزوما مكسور الوجدان

وستعرف بعد رحيل العمر بأنك كنت تطارد خيط دخان

«الشـامي»: يقولـون لا يوجد دخان بـلا نار، فدعك من مطـاردة الدخان وانطلق إلى النيران تستضيء وتستدفئ.

«راغب»: من أجل هذا أتيت.

«الشامي»: يعني اكتفيت ممن قبلي بتناول الأعراض والأوصاف، والأشكال والألوان، والبدايات والنهايات، وتريد مني أنا دون غيري أن أناولك الحقيقة والجوهر والذات؟ فلما يا صديقي ادخرت لي أصعب المهام وأبعد الآمال؟

«راغـب»: معـذرة يا سـيدي، ما قصدت هـذا ولكن هكذا سـاقتني إليك الأقدار، فكثرة السماع والكلام والأفكار لا تسد الرمق ولكن تزيد الشوق، وأنا جوعان ظمآن أخشى أن أموت وما ذقت طعم الحياة.

«الشامي»: وما المطلوب؟

«راغب»: أن أجد المحبوب؟

«الشامي»: وهل أخبروك أنني أعمل بالنهار «حكيما» وبالليل «خاطبة» !

«راغب»: أرجوك ساعدني ولا تسخر مني.

«الشامي»: حسنا.. أخبرني بالتحديد بما تريد.. كي اساعدك.

«راغب»: لست أدري ما أريد.

«الشـامي»: إذا دعني أخبرك بما تريد... أنـت تريد الانتقال من المعرفة النظرية إلى الخبرة العملية، تريد تحويل المعارف العقلية إلى مشـاعر قلبية، وتدرك من خلال حديثك مع من قبلي أن هذا الأمر ليس إليك، لا يقع في حدود

سلطانك ولا يندرج في قائمة قدراتك، وهذا ما يؤرقك وينغص عليك حياتك.

«راغب»: هو ذاك، فأين الفكاك؟

«الشامي»: ربما فعلا أنت لا تملك التذوق ولكن يمكنك التعرض، القصائد التي ينظمها الشعراء هي نتاج التجارب الشعورية التي يمرون بها، وكلما كانت التجربة الشعورية أكثر خطورة وعمقا واتساعا كلما كانت القصيدة أشد عذوبة وصدقا وصفاء، التجربة تبلور الأفكار وتفجر المشاعر، أنت بحاجة إلى الخوض في اليم فإما أن تصل إلى شاطئ النجاء وإما أن ترسل رسالة أخرى من تحت الماء.

(إني أغرق... أغرق... أغرق)

«راغب»: التجربة تعني الاختبار، والاختبار يعني الامتحان، والامتحان يعني الفتنة والابتلاء.

«الشامي»: وما الجديد في هذا، وما خلق الله الموت والحياة إلا لذاك، فاقدم أو احجم فلا فرق عند التحقيق بين ذا وذاك.

«راغب»: لا بد مما ليس منه بد، فأين الطريق؟

«الشامي»: لا بد من تحديد الوجهة قبل سلوك الطريق، فما وجهتك يا صديق؟

«راغب»: قد أخبرتك، المحبوب وجهتي وقبلتي.

«الشامي»: المحبوبون كثيرون فعمن تبحث؟ عن الشيخ أم الصديق؟ أم

لعلك تطلب ليلى؟

«راغب»: الشيخ والصديق اجتماع ثم افتراق، وقد خبرت في حياتي كليهما، أما ليلى التي أحلم بها ولا استطيع مقاومة سحر اسمها، فاجتماع لا فراق بعده.

«الشامي»: كل يغني على ليلاه، فهل ليلاك واقعية أم رمزية؟

«راغب»: أريد ليلى الأرضية قبل السماوية، ليلى البشرية قبل العلوية.

«الشامي»: أهذا منتهى أملك؟ امرأة من بنات حواء؟

«راغب»: لا بد من الإسراء قبل العروج، ورحم الله امرؤ عرف قدر نفسه، فلا تطالبني بالصعود رأسيا وأنا لم اتقن السير أفقيا بعد.

«الشامي» مترنما:

ولو فهموا دقائق حب ليلى كفاهم في صبابته اختبارا

اذا يبدوا امرؤ من حي ليلى يذل له وينكسر انكسارا

ولولاها لما اضحى ذليلا يقبل ذا الجدار وذا الجدار

إلى أن صار غيبًا في هَواها.. يشير لغيرها ولها أشارَ

صمت «الشامي» برهة بعدما انتهى من الأبيات، ثم تطلع إلى عيني رفيقه محاولا قراءة ما خلفهما وقال: إذاً أنت تريد أن تحب والسلام، تريد أن تختبر العشق والشغف والوله، تريد أن تمسك يداك بما تراه عيناك يطير في سماك.

أطرق «راغب» رأسه وقال بصوت خفيض: نعم.

«الشـامي»: لا أراك انتفعت كثيرا بمحادثاتك مـع من قبلي، هل تظن أن العشق قرار تتخذه؟

«راغـب»: أليسـت الأرواح جنود مجنـدة؟ فما علي لو بحثـت عن توأم روحي؟ عساي أجد عندها مناي.

«الشامي»: وماذا عن أهلك وأولادك؟ أتراهم يرضون بمسعاك؟

«راغب»: فليرضى عني الناس أو فليسخطوا، أنا لم أعد أسعى لغير لقاها.

«الشامي»: ولما هذا العنت؟ ألا يجدر بك أن تحب الموجود بدلا من اللهث وراء المفقود؟

«راغـب»: قد أقنـع بالقناعة في الاحتياجات المادية لكـني لا أقنع بها في المتطلبات الروحية.

«الشامي»: وهل البحث عن ليلى المزعومة مطلب روحي؟

«راغب»: بالنسبة لي نعم.

«الشامي»: ابحث عنها فيها، ابحث عن ليلاك المفقودة في ليلاك الموجودة، ابحث عن لبناك الخيالية في لبناك الحقيقية، فالحقيقة أجمل من الخيال، وإن لم تجد الحب داخلك وفيمن حولك فلن تجده في ليلى ولن تحصله عند لبنى.

«راغـب»: بل الخيال أجمل من الحقيقية، ولولا الخيال ما شـد الرحالة الرحال، ولا أبدع الشعراء والأدباء، ولا أثمرت جهود العلماء.

«الشامي»: إنما الوجود بالتوجه، فحيثما توجهت وجدت، ودور الخيال عند من ذكرتهم كان التوجيه نحو الحقيقة والإشارة إليها، ولو لم تكن البقاع والأصقاع التي شدت إليها الرحال حقيقة ماثلة ووجود واقع لتفرقت السبل بالرحالة ولانقطعت بهم الأسباب ولزهقت نفوسهم وهم تائهون.

«راغب»: ما أبدع المبدعون ما أبدعوا إلا بالخيال، ولو استحال الخيال حقيقة لفقد شيئا من الجمال، وقديما قالوا: (اعذب الشعر أكذبه).

«الشامي»: الجنة حق وما فيها من الجمال لا يخطر على خيال إنسان، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حق وجماله فاق كل جمال، والله سبحانه وتعالى حق ولذة النظر إلى وجهه الكريم تذهل أهل عليين عن جميع ألوان النعيم، فصف لي خيالا يفوق تلك الحقائق جلالا وجمالا.

«راغب»: نعم هي حقائق في معتقداتنا لكنها خيال تحن إليه أرواحنا وتشتاق إليه قلوبنا وتتسامى إليه ذواتنا، وحينما نلاقيها في الآخرة ستختلف القوانين والموازين وعندها ستصبح الحقيقة بالفعل أجمل من الخيال، أما في الحياة الدينا وأهلها فيحضرني ما روته السيرة عن لقاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجرير حين قال: (يا جرير! ما حُدث لي عن أحد إلاَّ وجدته أقلَّ مما ذكر لي، إلا أنت فكنت أعظم مما ذكر لي)، فكان جريرا رضي الله عنه استثناء يؤكد القاعدة.

«الشامي»: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، أما عن قصة جرير رضي الله عنه فلم تكن المسألة فيها

مقارنة الواقع بالخيال، وإنما مقارنة تقديرات البشر بتقديرات سيد البشر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فهم قد بالغوا في من دون جرير رضي الله عنه ولم يوفوا جريرا حقه، بينما النبي صلى الله عيه وسلم يعطي كل ذي حق حقه.

«راغب»: فلنعد إلى قصتي يا سيدي، هل ستساعدني في البحث عن ليلاي أم ستتركني وهواي؟

«الشامي»: صحيح أنني حثثتك على التعرض للتجربة لكني كنت أرجو لك نوعا خاصا منها وبعدا مغايرا فيها، فإن أبيت إلا ما ذكرت فدعنا نبدأ بالماضي، هل أحببت يوما ما؟

سكت «راغب» طويلا ثم قال: اعتصرت ذهني واستعرضت شريط ذكرياتي فما وجدت سوى بعض خيالات فترة المراهقة.

«الشامي»: الأمر أهون من ذلك يا صاح، لو كنت أحببت بالأمس وسئلت عنها اليوم لقفزت صورتها من قلبك إلى عقلك ولنطق باسمها لسانك دون عناء ولا استذكار ولا اعتصار.

«راغب»: إذا أنا ما أحببت.

«الشامي»: لا أحسب أن بشرا لم يحب، لكن ليس بالضرورة أن تلقى في الحياة صورة الحب الذي تتمناه، إنما حتما ستلقاه بصورة ما.

«راغب»: إن كنت تقصد حب المعاني والأصدقاء، أو الأماكن والأشياء، أو من نقرأ سيرتهم من الأموات والأحياء فاتفق معك أنها صور موجودة مكرورة، لكن يبقى فراغ في القلب لم يشغله أي منها، فراغ لا تشغله سوى ليلى.

«الشامي»: إذاً لا مفر.

«راغب»: لا مفر مما؟

«الشامي»: من السفر إلي ليلى.

«راغب»: دلني على السبيل.

«الشامي»: لم يبق في جعبتي سوى «قرية الرياحين»، قلما دخلها أحد وعاد دون حبيب.

«راغب»: ما سمعت بها من قبل.

«الشامي»: ولن تسمع من بعد.

«راغب»: صفها لي.

«الشامي»: قرية صغيرة، لن تجدها على الخريطة، غريبة عجيبة، بعيدة قريبة، مهجورة مألوفة، طبيعتها ساحرة خلابة، وأهلها لهم من طبيعتها نصيب.

«راغب»: وهل ستدلني عليها أم ستصحبني إليها؟

«الشامي»: إن شئت أرشدتك وإن شئت رافقتك.

«راغب»: بل اختار المرافقة.

«الشامي»: المرافقة تلزمها المشارطة.

«راغب»: اشترط لنفسك ما تشاء يا سيدي.

«الشامي»: يا ولدي إنما اشترط لك لا لنفسي.

«راغب»: وما هو الشرط يا سيدي؟

«الشامي»: لا تطلب المفارقة حتى تنتهي المرافقة.

«راغب»: صدقت يا سيدي هذا الشرط لي لا لك، وأنا أحوج إليه منك.

«الشامي»: إذاً نلتقي غداً إن شاء الله عند الشيخ «محي الدين بن عربي»، ثم نتوجه إلى «قرية الرياحين».

* * *

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي

إذا لم يكن ديني إلى دينه داني

لقد صارَ قلبي قابلاً كلَ صُورةٍ

فمرعىً لغزلانٍ ودَيرٌ لرُهبَانِ

وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ

وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآن

أدينُ بدينِ الحبِ أنّى توجّهتْ

ركائبهُ، فالحبُ ديني وإيمَاني

بعد الزيارة ثم الجلوس في احدى الزوايا، وفترة من الصمت والتأمل، قال «راغـب»: لعلك اخترت هذا المكان يا سـيدي ليكون نقطة البداية في رحلتنا، لأن صاحبه يدين بدين الحب.

«الشـامي»: أجل. تفاءلـوا بالخير تجدوه، لعـل الله يجعل لك من الحب نصيبا.

«راغب»: وهل يتسع الحب لعبدة الأوثان؟

«الشـامي»: إن أحببـت الخير في النـاس وللناس فخياركـم في الجاهلية خياركم في الإسلام، ولقد كانت دعوة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – (اللهم أعز الإسلام بأحـب هذيـن الرجلين إليك) – مـن نصيب الفاروق رضـي الله عنه لأنه كان أحبهما إلى الله قبل أن يسـلم، كثيرون تشـغلهم الخاتمة ويغفلون عن السابقة (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون).

«راغب» مغيراً دفة الحديث: متى ننطلق؟

«الشامي»: الحين نروح للرياحين.

* * *

لم تكن الرحلة إلى قرية الرياحين بالطويلة ولا القصيرة، ولم تكن بالعسيرة ولا اليسـيرة، ولم تكن ركوبا ولا سـيرا علـى الأقدام وإنما مزيـج من كل ما سبق، ولكن ما أن وطأت أقدام الرفيقين ثراها حتى أدرك «راغب» أنهما أدركا

الغاية، وأنهما وصلا إلى المكان المنشـود، فقد كانـت رائحة الريحان فياحة، والطبيعة كما أخبره الشـامي خلابة، لم تكن في القرية حانات ولا حوانيت، وكانت البيوت بسـيطة لكنها أنيقة جميلة وكلها لها حدائق صغيرة مزروعة بالريحان، وتنبعث منها تغاريد الأطيار.

«الشامي»: مضت أعوام طوال منذ آخر زيارة لي لهذه القرية، لا يوجد هنا أسواق للبيع والشـراء، أهل القرية يزرعون ما يحتاجون في حدائق منازلهم، ويشـترون حاجاتهم الأخرى من خارج القرية، ولا يوجد سـوى سبيل للخبز وسبيل أو أكثر للمياه يتشارك الميسورون من أهل القرية في تمويلها حتى يجد كل أهل القرية وزوارها حاجتهم من الخبز والماء بلا عناء.

«راغب»: يا لها من قرية.. ما ظننت أن يوجد في الدنيا مثلها.

«الشامي»: لو حدثتك عن «الوقف» في تاريخ أمتنا لوجدت أعجب من ذلك.

«راغب»: وأين ذلك المخبز وذاك السبيل؟ أحسب أننا في حاجة لكليهما.

«الشامي»: هذا ما لست أذكره لبعد الزمان كما أخبرتك.

«راغب»: إذا فلنسأل بعض أهلها لعلهم يدلوننا.

* * *

عطشان يا صبايا

وانا عاشق.. ع السبيل

عطشان والميه ف بلدي

على عكس ما يجري النيل

وانا كنت امبارح خالي

واليوم دا صبحت عليل

عطشان ودوايا حبيبي

يسقيني العشق دليل

ودليل الحب عمايل

وكلام الحب جميل

وانا كل ما أقول التوبة

تغويني المواويل

تطرح في القلب جناين

تفقس فيها الزغاليل

عشاق يا حمام الغيه

ولا فيش قدامنا بديل

سكه ومحسوبة علينا

نطويها جيل ورا جيل

ع الشوك نفرد خطاوينا

في الليل تضوي القناديل

حوالينا قلوب حبابه

ومعانا العقل دليل

والشمس تصب صبابه

والمنبع نهر النيل

وان لاموا علينا يلوموا

ما لهمش علينا سبيل

ما هو شوك العشق ملامه

والشوك في الورد أصيل

ودوني ع السبيل

ودوني ع السبيل

استمر الرفيقان في السير فترة دون أن يجدا من يسألاه، فشوارع القرية كانت خالية، ربما لعدم وجود الأسواق، وربما لأن هذا وقت العصر، وربما لكليهما، وأخيرا لمحا فتاةً تجلس في حديقة أحد المنازل على مرمى البصر

فتوجها ناحيتها، وعندما وصلا إليها ألقى الحكيم التحية عليها ثم سألها:

لو تكرمت يا بنيتي .. أين سبيل الخبز والماء؟

التفتت «الفتاة» ووضعت الكتاب الذي كانت تطالعه على المنضدة ثم قامت وقالت: مرحبا يا عماه، أبعد أن وصلت إلى دارنا أصرفك إلى غيرها، ليس هذا من كرم الضيافة.

«الشامي»: أحسن الله إليك يا ابنتي، لا نريد أن نثقل على أهل الدار.

صبّت الفتاة كوبا من الماء وناولته « للحكيم» ثم التفت إلى الدار حيث تقف فتاةً أخرى خلف أحد النوافذ يبدو أنها تغسل الصحون فأمرتها أن تحضر شيئا من الطعام، ثم التفت مرة أخرى للحكيم ورفيقه وقالت: هل أنت ظمآن أيضا أيها الشاب؟

قبل أن يفيق «راغب» من اندهاشه واعجابه بالفتاة ويحاول الإجابة على سؤالها قال «الشامي»: ظمأ هذا الشاب للهوى أشد من ظمأه إلى الماء.

«الفتاة»: وهل يعرف معنى الهوى؟

هذه المرة انتقل «راغب» من الاندهاش إلى الاستفزاز، خاصةً مع عمر الفتاة التي تصغره بكثير، وإن كان أعجبه منها أنها تراه شاباً، وعندما همَّ أن يجيبها منعه «الحكيم» بإشارة من يده وقال: هل لديك جواب؟

أشارت «الفتاة» إلى الكتاب الذي وضعته على المنضدة منذ قليل، وقالت: سأحكي لك قصة يا عماه طالعتها في هذا الكتاب وأحسب أن فيها الجواب.

ناول «الشـامي» كوب الماء الثاني الذي صبته الفتاة لرفيقه وقال: اشرب يا صديقي وانصت لعلك تنال المقصد.

ثم التفت إلى الفتاة وقال: تفضلي يا ابنتي.

«الفتـاة»: يحكى أنه في يوم مـن الأيام كان هناك فتاة صغيرة جميلة وبعد فترة من الزمن كبرت الفتاة الصغيرة

واصبحت عروسـا جميلة وبدأ العرسـان يطرقون بابها، فتقدم لخطبتها ثلاثة من أحسـن شباب القرية خُلقا وخَلقا واحتارت الفتاة أيهم تختار، وكان لهذه الفتاة والد حكيم فسألته النصيحة، فنصحها أن تختار بقلبها لا بعقلها، ومرت الأيام والشـهور والفتـاة تفكر وتفكر وتزداد حـيرة، وفي يوم من أيام الصيف الحارة مرضت الفتاة مرضا شـديدا، واشتد القلق عليها في سائر أرجاء القرية، ثم ماتت الفتاة بسـبب المرض فحزن والدها والعرسـان الثلاثة حزنا شديدا وقرر كل منهم أمرا مختلفا حزنا عليها، فقرر الأول أن يكون في خدمة والدهـا يرفق به ويلـبي احتياجاته بعد مرضه حزنا علـى وفاة ابنته، وقرر الثانـي المكث بجـوار قبرها، وأما الثالث فقرر أن يسـيح في الأرض؛ لأنه لن يقوى على البقاء في مكان لا تتواجد فيه الحبيبة، وأثناء احدى رحلاته صادف قريـة في مكان غريب لم يسـمع عنـه من قبل وعرف أن فيها رجلا مشـهورا بالطب والحكمة فسـعى لمقابلته وسـأل عنه حتى دلوه على بيته، فرحب به الحكيـم ودعاه للعشـاء، وأثناء تناول الطعام كان حفيـد الحكيم يبكى فأمره الحكيم بالسـكوت فلم يسـكت فقـام الحكيم من مكانه والقـى بحفيده في نار

المدفئة فقفز صاحبنا من مكانه فزعا، فقال له الحكيم: يا أخي اكمل عشاءك ولا تخف. فقال: لا استطيع. فقال له الحكيم: لا تتعجب مما رأيت اصبر وسترى ما هو أعجب منه. فجلس الشاب مرعوبا وبعد العشاء قام الحكيم الى المدفئة والقى فيها مادة عجيبة فقام حفيده من المدفئة ليس به ضرر كأنما كان نائما ثم استيقظ، فتعجب الشاب مما حدث وطلب من الحكيم بعضا من هذه المادة فسأله الحكيم عن السبب؟ فقص عليه قصته والفتاة التي أحبها، فأعطى له الحكيم ما طلب، وعاد الشاب الى بلده سعيدا وعندما اجتمع بوالد الفتاة ورفيقيه حكي لهم ما حدث فقرروا أن يلقوا بالمادة العجيبة على الفتاة وعندما تستيقظ يقصوا عليها ما حدث وماذا فعل كل من العرسان الثلاثة وتختار هي من بينهم، ففعلوا وقامت واستيقظت ليس بها بأس فقصوا عليها ما حدث في غيابها وتركوا لها الخيار لتقرر من يكون حبيبها.

«الشامي» مخاطبا «راغب»: في ظنك من أجدرهم بقلب الفتاة؟

«راغب»: من هجر الأوطان، وترك الأهل والديار، وواصل السير بالليل والنهار، وكان سببا في عودة الحياة إليها.

«الشامي»: فما فصل الخطاب عندك يا بنيتاه.

«الفتاة»: سأخبركما يا عماه بشان كل شاب من الشبان، فالذي ساح في البلدان تحرك بدافع من الأحزان، والذي لزم خدمة الوالد تحرك بدافع من الوفاء والشعور بالعرفان، أما الذي مكث بجوار قبرها فلم يكن في قلبه سوى حبها، وما كانت الفتاة لترضى بغير الهوى بدلا، وما كانت الصبية لترضى

عن الحب عطية، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

«راغب»: لو نظرنا إلى الإحسان لكان من اختارته أقلهم إحسانا، فالذي لزم الخدمة أحسن إلى والدها، والذي جاء بالدواء أحسن إلي الحبيبة وأبيها، فأين إحسان ثالث الشبان؟

«الفتاة»: نعم الخادم أحسن إلى والدها وأجاب حظ نفسه من الشعور بأداء الواجب، والسائح أحسن إلى بدنها وأجاب حظ نفسه من طلب الحكمة والمعرفة، أما الثالث فقد أحسن إلى روحها، فمكث بجوار قبرها يؤنس وحشتها، ويرجو وصالها، ويلبي ندائها، ويناجي طيفها، ولم يكن لنفسه حظ سوى قربها.

«راغب»: صدقتِ يا أختاه، أنتِ أعلم بالأمر مني، وما انتبهتُ إلى ما انتبهتِ إليه، هذا الهوى وإلا فلا.

«الشامي»: شكر الله لكِ كرم الضيافة وحسن الحديث، ونستودعكِ الله فقد آن أوان الرحيل.

ناولت «الفتاة» الطعام الذي أعدته الخادمة إلى «الحكيم» وقالت: في أمان الله يا عماه.

كاد قلب «راغب» أن ينفطر، وأخذه الذهول من طلب «الحكيم» للرحيل، لكنه تغلب على ذهوله سريعا وجذب «الحكيم» برفق إليه ليساره، فقال له بصوت خفيض: أبعد أن وجدت ما أريد يا سيدي تأخذني لبعيد؟

فهـم «الحكيم» ما يرمي إليه، فقال برفق ممتزج بالحزم: لم تنته رحلتنا بعد.

«راغب»: أخشى إن أكملت أن أفقد ما وجدت.

«الشامي»: أنسيت المشارطة.

«راغب»: ما نسيت ولكن ارفق بحالي.

«الشـامي»: لعلك تجد غدا ما يجعلك تراجع ما وقر في قلبك اليوم، فإن لم يتغير الحال فلن أمنعك من العودة بعد نهاية الترحال.

«راغب» على مضض: لا بأس.

«الشامي» مخاطبا الفتاة: في أمان الله يا...؟

«الفتاة»: ريحانة يا عماه.

انطلق الرفيقان، وبعد فترة من السير والصمت، قال «راغب»: إلى أين الآن يا سيدي؟

«الشـامي»: لقد أوشـكت الشـمس على المغيب، ولن يكون من المناسب لنا كغربـاء التجول في القرية ليلا، ولا توجد فنـادق داخل القرية، دعنا نتناول الطعام الذي أهدته لنا «ريحانة»، وسـتلاحظ أن أهل هذه القرية يسـتخدمون الريحان في طعامهم وشـرابهم أيضا، ثم نذهب للمبيت في أقرب فندق للقرية، ونعود غداً إن شاء الله تعالى.

* * *

في اليــوم التالي قــادت الأقدار الأقدام إلى جنة مــن جنان أرض الريحان، بطيــب ريحهــا وروعة نباتها، وتغريــد طيورها الذي امتــزج بخرير مائها في لحــن يعيد للأرواح ذكرياتها، ووســط الحديقة جلســت فتاة بديعة زادت من جمال المشــهد وحســن المنظر، وقد ارتســمت أمارات الأسى على وجهها وانســكبت نظرات الحزن من عينها، والعجيب أن ذلك قد زاد من حســنها، كان «راغب» يظن فيما مضى أن الأشــجان تضعف الجمال وأيقن اليوم أنها قد تضاعفه، وأسر في نفسه: إن كان هذا جمال حزنها فكيف بجمال فرحها؟ وإن كانت هذه عبســتها فكيف بابتسامتها؟ ومن شدة إكباره لها وانبهاره بها لم ينتبه إلى السيدة التي تجلس بقربها تجري دموعها في صمت على خدها، ولم يلتفت إلى وجودها حتى أيقظه صوت الحكيم وهو يقول: يبدو أن هذه العجوز وبنتها في حاجة إلى المعاونة.

لم ينتظر «الشــامي» تعقيب «راغب» وتوجه مباشــرة إليهما وقال مخاطبا المرأة: لعلنا نستطيع المساعدة يا سيدتي؟

جففت العجوز دموعها وتمالكت جأشــها ورفعت نظرها إلى «الشامي» ثم قالت: لا أظن أيها الشيخ الطيب.

«الشامي»: يضع سره في أضعف خلقه.

«العجوز»: فهل يمكنك يا سيدي أن تعيد لابنتي ما فقدت؟

«الشامي»: وماذا فقدت ابنتك العزيزة؟

«العجوز»: فقدت السعادة.

«الشامي»: لله في خلقه شئون، هذا ابني يبحث عن الحب وهذه ابنتك تبحث عن السعادة.

«العجوز»: كل يغني على ليلاه.

«الشامي»: صدقتِ.. ولكن كيف فقدت ابنتك السعادة؟ وهل تأذنين لها في الجواب عن نفسها؟

«العجوز»: ليتها تفعل لعلنا نفهم، فمنذ الحادثة لم نسمع صوتها، حتى أننا أحيانا لا ندري إن كانت تسمعنا أم فقدت سمعها.

«الشامي»: أية حادثة يا سيدتي؟

«العجوز»: من عاداتنا ألا تخرج فتياتنا خارج القرية، حرصاً عليهن وشفقة بهن، لأن الحياة في المدينة قاسية، ولكن المسكينة غامرت وخرجت من القرية منذ ثلاثة أيام لأول مرة في عمرها، ومنذ عادت وحالها على ما ترى.

«راغب» هامسا: رباه.. وكأنما عالجت تجربة الخروج من الجنة التي مر بها أبوينا.

«الشامي»: تجربة الخروج من الجنة مؤلمة، وتجربة دخول الجنة مُهلكة.

«راغب» مندهشا: انظر ما تقول يا سيدي، أيهلك من دخل الجنة أم ينجو؟

«الشامي»: يهلك إذا دخلها وهو ظالم لنفسه.

«راغـب»: تقصد صاحب سـورة الكهف.. عندما يقرأ أحدنـا هذه القصة جدير به أن يحمد الله أن ليس له جنة.

«الشـامي»: ما مـن أحد إلا وله جنة مهما عظم شـأنه أو صغر، بداية من أصحـاب القصـور الملكية والجمهوريـة وحتى العاجز الذي يسـأل الناس في إشـارات المرور، جنته هي الكرسـي المتحرك أو العكاز الذي يتسـول عليه، وبين القصر والعكاز، سـتمر بمنابر المسـاجد وقاعـات المحاضرات، وبرامج الإعلام وشركات الأموال، وأندية الرياضة وخشبات المسارح، وعيادات الأطباء ومكاتـب الموظفين، إلى ما لا يحصى من الجنـان التي يدخلها كثير من الناس وهم ظالمون.

«راغب»: يا رب سلم سلم.

«الشـامي» ملتفتا إلى «العجوز»: معذرة يا سيدتي لهذا الاستطراد، ولنعد إلى حوارنا، فما زلت أرى أنه في إمكاني مساعدة ابنتك.

«العجوز»: ها هي أمامك فافعل ما بدا لك.

«الشـامي» مخاطبا الفتاة: اسمعي يا ابنتي هـذه الحكاية مني واخبريني إن فهمـتِ عـني، يحكى أنه في قديـم الزمان، في احدى البلـدان، كان هناك ملـك حزين، خزائنـه مليئة بالذهب، وصدره ملآن بالشـجن، في قبضته كل شئون السياسـة، وفي قلبه كل ألوان التعاسة، فجمع الندماء والوزراء ليجدوا له سـبيل النجاة من هذا الشقاء، فجاءوا له بالأطباء والحكماء فما تغير شيء فوق الأرض ولا تحت السـماء، واسـتعانوا بالمنشدين والمهرجين فما كانوا من

المفلحين، واستمر الحال أيام طوال حتى رأى وزيره الأول رؤية في المنام، فما أن أذن الأذان حتى أسرع إلى الملك ليقصها عليه ويزيل عنه الأحزان، فأخبره أنه رأى أنه يبحث عن حكيم الزمان ليصف له دواء الشقاء، فلما التقاه وقص عليه الخبر، قال له: إن علاج الملك أن يبحث عن أسعد إنسان في مملكته ويأخذ منه قميصه، فإذا تقمص قميص أسعد إنسان تبدل حاله من التعاسة والشقاء إلى السعادة والهناء، فأطلق الملك جنوده يفتشون في الجبال والوديان، والساحات والغابات، ليعثروا على أسعد أهل البلاد، فلما وصلوا إليه بعد تدقيق وتمحيص وجدوا أنه ليس له قميص.

«راغب»: ما أراها سمعت، وإن سمعت فما وعت.

«الشامي»: بل سمعت ووعت.

«راغب»: وما أدراك أنها فعلت؟

«الشامي»: وما يدريك أنها لم تفعل؟

«راغب»: قد راقبتها فما ظهر على وجهها أثر لكلمة واحدة مما ذكرت.

«الشامي»: هذا لأنك نظرت إلى ما ظهر وأنا نظرت إلى ما بطن.

«راغب»: فلمَ لم تجبك عند سؤالها، ولمَ لم تخبرك عن حالها؟

«الشامي»: الإخبار عن الحال يتطلب الخروج منه.

«راغب»: فما يمنعها؟

«الشامي»: الإنسان لا يدخل في الحال بإرادته حتى يخرج منه بمشيئته، فالمرء لا يتقمص الحال وإنما الحال يتقمص الإنسان.

«راغب»: نعم كما تقمصت السعادة الرجل في القصة فلم يعد بدنه في حاجة إلى قميص.

«الشامي»: أجل.

«راغب»: فكيف السبيل إلى الخروج من الحال.

«الشامي»: تحتاج من يعاونك في نزع القميص، كما فعل الجنيد مع النوري رحمهما الله.

«راغب»: قص لي قصتهما يا سيدي.

«الشامي»: ورد في الحكايات أن النوري في وقت ما، ظل يصرخ لمدة ثلاثة أيام وليال في بيته، واقفاً في مكان واحد. فأخبروا الجنيد، فنهض وذهب إليه وقال: يا أبا الحسن! إذا كنت تعرف أن الصراخ يفيد معه،

فأخبرني لأصرخ أنا أيضا، وإن كنت تعرف أنه لا يفيد، فارضَ بالتسليم ليسعد قلبك،

فكفَّ النوري عن الصراخ وقال: ما أحسنك معلماً لنا يا أبا القاسم.

«راغب»: وإلى متى يا سيدي ستستمر في المحاولة؟

«الشامي»: إلى أن يمن الله تعالى علينا، فأنا لن اتخلى عنها في هذه الحالة، فهل لديك الرغبة في البر والقدرة على الصبر.

«راغب»: نعم يا سيدي، فأنا أيضا أريد ما تريد.

مد «الشامي» يده إلى «راغب» قائلا: أتعاهدني على ذلك.

التقط «راغب» يد «الشامي» وقال: أجل.

«العجوز»: شكر الله لكما، والله إني لأرجو بركة إرادة الخير عندكما، و.. وقبل أن تكمل كلامها اتسعت فرحا عيناها وصاحت الله كريم.. الله كريم.

التفت الرفيقان إلى حيث نظرت العجوز فوجدا الفتاة تمسح دمعة سالت على خدها وهي تنظر إليهم وتحاول جاهدة أن تتغلب على صمتها، حتى نجحت أخيرا وقالت: كل ذلك من أجلي أنا؟ لما؟

أشرق وجه «الشامي» وهو يقول: لأن السعادة في المساعدة يا ابنتي.

«الفتاة»: ولكنك لا تعرفني يا عماه.

«الشامي»: مساعدة القريب حسنة جميلة ومساعدة الغريب أحسن وأجمل.

«الفتاة»: قد فهمت عنك يا سيدي في قصة القميص وقصة الجنيد، وعلمت أن السعادة في راحة القلوب لا راحة الأبدان، وأن السعادة في التسليم، وأن السعادة في العطاء لا في الأخذ، وأن السعادة في توفيق الله في نجاح المساعي.

«الشامي»: (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون)

«الفتاة»: لكن يا سيدي بعد تجربتي القاسية خارج القرية الطيبة، لن أستطيع بمجرد الفهم أن اجتاز النهر، أحتاج من يأخذ بيدي ويسبح معي.

هم «راغب» أن يخبر «الفتاة» أن طلبها موجود لكن «الشامي» أسكته وقال

للفتاة: أنا على يقين يا ابنتي أن الله تعالى سيرعاك ويرشدك وأنك ستنجحين في اجتياز الأنهار وارتقاء الجبال، والآن نستودعكِ الله أنتِ والوالدة الكريمة ونوصيك بها خيرا.

«العجوز»: بارك الله فيكما، وشكر الله لك أيها الشيخ الطيب.

«الفتاة»: تصحبكما السلامة يا عماه.

«الشامي»: في أمان الله يا..؟

«الفتاة»: ريحانة يا سيدي.

«الشامي»: في رعاية الله يا ريحانة.

* * *

ما إن ابتعدت خطوات الرفيقين عن نظر المرأتين حتى انفجر «راغب» قائلا: للمرة الثانية تحطم فؤادي؟ لما؟ لماذا؟

«الشامي»: وأيتهما كانت حبة الفؤاد؟ الريحانة الأولى أم الريحانة الثانية؟

«راغب»: ليتك أذنت لي البارحة وتركتني، وقتها كان القرار ميسورا، أما الآن وبعدما زادت مساحة الاختيار ازدادت صعوبة الاختبار، وكل مختار محتار.

«الشامي»: إذا انتظر يومنا الثالث والأخير في قرية الرياحين، لعل الريحانة الثالثة تفوز بالضربة القاضية.

«راغب»: وماذا لو زادت الطين بلة، وأصبح الاختيار بين ثلاثة لا اثنتين؟

«الشـامي» باسما: في هذه الحالة لا مشـكلة لديك، أنت متزوج بالفعل من واحدة، والشرع قد أحل لك أربعا، فلما المفاضلة طالما يمكن الجمع؟

«راغب» عابسا: أتسخر مني يا سيدي.

«الشامي»: لا تنس أنك من طلبت مرافقتي واخترتها.

«راغب»: وها أنا ذا اتحمل نتيجة سؤالي واختياري.

«الشامي» منشدا: أما أنا فأقول:

قد كفاني علم ربي من سؤالي واختياري

فدعائي وابتهالي شاهدٌ لي بافتقاري

فلهذا السر أدعو في يساري وعساري

أنا عبدٌ صار فخري ضمن فقري واضطراري

قد كفاني علم ربي من سؤالي واختياري

يا إلهي ومليكي أنت تعلم كيف حالي

وبما قد حل قلبي من همومٍ واشتغال

فتداركني بلطف منك يا مولى الموالي

يا كريم الوجه غثني قبل أن يفنى اصطباري

قد كفاني علم ربي من سؤالي واختياري

يا سريع الغوث غوثاً منك يدركنا سريعاً

يهزم العُسر ويأتي بالذي نرجو جميعاً

يا قريباً يا مجيباً يا عليماً يا سميعاً

قد تحققت بعجزي وخضوعي وانكساري

قد كفاني علم ربي من سؤالي واختياري

لم أزل بالباب واقف فارحمن ربي وقوفي

وبوادي الفضل عاكف فأدم ربي عكوفي

ولحسن الظن لازم فهو خِلّي وحليفي

وأنيسي وجليسي طول ليلي ونهاري

قد كفاني علم ربي من سؤالي واختياري

حاجة في النفس يا رب فاقضها يا خير قاضي

وأرح سِري وقلبي من لظاها والشواظِ

في سرورٍ وحبورٍ وإذا ما كنت راضِ

فالهنا والبَسط حالي وشعاري ودثاري

* * *

و في اليوم الثالث والأخير عاد الرفيقان إلى قرية الرياحين، لكن هذه المرة طال بهم فيها المسير، ولم يلقا أمرا ذا بال، ومن صادفهما من أهل القرية لم يحدثهما حديثا ذا شان، حتى أدركهما التعب ولحق بهما النصب وفقد «راغب» الأمل، فانطلقا إلى الظل يستريحان، وبدأ «راغب» الكلام: لقد أوشك اليوم على الانتهاء، ويبدو أنه قد خاب الرجاء.

«الشامي» مصطنعا الدهشة: وماذا كنت ترجو؟

«راغب»: تسألني يا سيدي وكأنك لم تكن معي بالأمس!

«الشامي»: أو كل ما كان بالأمس يجب أن يكون اليوم؟

«راغب»: هذا ما كنت أتوقع.

«الشامي»: وهذا ما أوردك الموارد، أحسن لك ألا تتوقع شيئا.

«راغب»: ليس هذا بالشيء الهين.

«الشامي»: تطلب الهوى وتتوقع الشيء الهين! ما أعجب هذا الحال!

«راغب»: وبعد؟ ماذا سنفعل؟

«الشامي»: وبعد؟ وبعد؟ لا تنتهي تطلعات الإنسان إبدا!

«راغب»: وما الخطأ في هذا؟

«الشامي»: التطلع إلى الغد يشغل الجنان عن فهم حكمة اليوم، ويحرم الوجدان من تذوق سعادة الآن، ويملأ النفس بالطمع.

«راغب»: إنما أردت أن أحسم الأمر اليوم، وانظر هل سأرجع من قرية الرياحين متوجا من الحب بإكليل أم سأعود بخفي حنين.

«الشامي»: لو كانت لابن آدم ريحانة من قرية الرياحين لتمنى الثانية، ولو كانت لو ريحانتان لتمنى الثالثة، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب.

حاول «راغب» أن يجيب «الشامي» فلم يجد في ذهنه ما يسعفه، فأغمض عينيه ليفتش عن الجواب في ثنايا عقله فلم يحصل ما ينجده، ففتح عينيه ليقر بعجزه، فإذا به مع ارتفاع جفنه يرى ما ينسيه السؤال ويشغله عن الجواب، رأي على مرمى البصر خطوات رشيقة تقترب في تؤدة، تبعتها قسمات مليحة قد أطرقت جبهتها ناظرة إلى مواقع أقدامها، حتى إذا دنت إلى مسافة تسمح بتبادل الحوار معهما رفعت رأسها لتضيف النظرات الرقيقة إلى الخطوات الرشيقة والقسمات المليحة وقالت: مرحبا.. رأيتكما تتجولان من ساعات في القرية ذهابا وإيابا، فهل تبحثان عن مكان أم عن إنسان؟

«راغب»: نبحث عن الريحان. (قالها في قلبه ولم ينطق بها لسانه)

«الشامي»: إنما هي السياحة في الأرض يا بُنيتي.

«الفتاة»: وهل من غرض للسياحة إلا البحث والنظر؟

«الشامي»: صدقتِ.. ولكن هبِ أننا نبحث عن مكان أو نفتش عن إنسان، فهل أنتِ عالمة بكل أرجاء القرية وأهلها؟

«الفتاة»: لا إن أردت الصراحة يا عماه.

«الشامي»: ففيما قدومكِ إلينا وسؤالكِ لنا؟

«الفتاة» بمزيج من الحزم والحياء: أردت أن أرى هذا الشاب عن قرب.

لحظ «راغب» ببصره إلى السماء، وخُيل إليه أن مَلكا من ملائكة المحبة – إن كان للحب ملائكة كما للرحمة – يرميه بسهم من قوسه فيصيب فؤاده، فإذا بصخور قلبه تنهار وتتفجر منه الأنهار.

«الشامي»: وما سر الاهتمام بهذا المسكين؟

«الفتاة»: حلم يراودني منذ فترة، أرى فيه شخصا يجمع بين الغربة والغرابة والرغبة، يساعدني على تحقيق المعادلة الصعبة، وعندما رأيتكما من بعيد، كلما انطلقتما في اتجاه عدتما إلى هذه البقعة من جديد، وأنتما عن القرية غريبان وفيها راغبان، وقع في قلبي شيء أردت أن أتأكد منه، وما أحسب صاحب الحلم إلا صاحبك، ثم توجهت إلى «راغب» بالسؤال وقالت: ما اسمك أيها الضيف؟

«راغب»: راغب الغريب.

لمعت عينا الفتاة وهي تقول: راغب وغريب.. عجيب.

«راغب»: ماذا قصدتِ بالمعادلة الصعبة؟

«الفتاة»: الخروج من القرية ببدني والبقاء فيها بقلبي.

تذكر «راغب» تجربة الريحانة الثانية وأمارات الحزن وعصارات الأسى على وجهها، وارتسمت في ذهنه صورة الريحانة الثالثة وقد أصابها ما أصاب

أختها، ثم قال: هذا ليس صعبا بل شبه مستحيل، أو ليس لكِ مطلب غير ذلك؟

«الفتاة»: هو ذاك مطلبي، فهل ستساعدني؟

هم «راغب» بالموافقة لولا أن «الشامي» تدخل قائلا: أنت تعلم أن ذلك ليس بشبه المحال بل هو المحال نفسه، فلا تغالط نفسك، ولا تعد بما لن يُدرك.

«راغب»: الأمر يستحق المغامرة.

«الشامي»: ما تريد الاقدام عليه مقامرة وليست مغامرة، ولن تستطيع أن تتحمل النتائج.

راجع «راغب» «الشامي» عدة مرات، وفي كل مرة يحذره «الشامي» وينهاه حتى أوشكت الشمس على المغيب، فقطعت «الفتاة» الحوار وقالت في فزع: ستغرب الشمس، معذرة يجب أن انسحب، أنتما لا تعرفان صرامة القوانين عندنا، لا ينبغي البقاء في الخلاء إذا أقبل الظلام.

«الشامي» متفهما: بل أعرفها يا ابنتي، نحن أيضا يجب أن نغادر، في رعاية الله يا ريحانة.

«الفتاة» متعجبة: كيف عرفت اسمي يا عماه.

«الشامي»: هذا اليوم الثالث لنا في قريتكم وقد عرفنا الكثير.

أومأت الفتاة برأسها، ثم التفت إلى «راغب»: إذا حسمت وعزمت تعرف أين تجدني.

و لم تنتظر جوابه، وكما جاءت بخطوات رشـيقة في تؤدة ذهبت بخطوات رشـيقة لكن في سـرعة، وعينا «راغب» ترمقها وهي تبتعـد، وظل يتطلع إلى طيفها حتى جذبه «الشـامي» قائلا: لا يمكننـا البقاء أكثر من هذا، يجب أن نغادر على الفور، ثم أخذ بيد صاحبه وانطلقا.

* * *

و بعد العودة سأل «الشامي» جليسه: كيف تجدك؟

«راغب»: ليس على ما يرام.

«الشامي»: وكيف وجدت قرية الرياحين؟

«راغـب»: في اليوم الأول ظننت أنـني أدركت مُنيـتي، وفي اليوم الثاني ازدادت حيرتي، وفي اليوم الثالث ضاعت فرصتي.

«الشامي»: أتظن أنك أحببت احدى الريحانات؟

«راغب»: أجل.

«الشامي»: أيتهن؟

«راغب»: لا استطيع أن اختار.

«الشـامي»: ليس هذا بحب، لأنه ليس مع الحب اختيار، الحب يسـبي القلوب ولا يترك لها الخيار.

«راغــب»: ولكني وجدت أثر ســهامه في قلبي، فإن لم يكــن هذا حبا فما يكون؟

«الشامي»: وهماً.

«راغب»: أتعني أنه لا وجــود لقرية الرياحين، وأننا لم نرى الريحانات ولم نتحدث إليهن، وأن رحلتنا كلها كانت مجموعة من الأوهام؟ أحكيم أنت أم ساحر؟

«الشامي»: أنما أحدثك عما وجدت في قلبك وليس عما رأيت ببصرك.

«راغب»: وكيف وصل الوهم إلى قلبي؟

«الشامي»: عن طريق الاعجاب والشفقة والاهتمام.

«راغب»: ماذا تقصد؟

«الشامي»: الريحانة الأولى أنت أعجبت بها، أعجبك منها كرم ضيافتها، وســعة ثقافتها، وحســن منطقها، يعني أحببت صفاتها وليس ذاتها، فقادك هذا إلى توهم حبها.

«راغــب»: أوليس صفاتها من ذاتها؟ فلما لا يكون حبا وليس اعجابا؟ وما الفارق؟

«الشــامي»: الفارق أنك لو صادفــت ذات الصفات في غيرها لوقعت أيضا في حبها، فأي حب هذا؟ الصفات لها أهميتها بلا شــك، لكن الحب تعلق بروح

الشخص لا بصفته، فحتى إن لم يكرمك، بل حتى إن منعك وحرمك فلن يموت حبك.

«راغب»: يعني ضرب الحبيب مثل أكل الزبيب، وبصلة المحب خروف، والقرد في عين أمه غزال، أتعتقد فعلا في تلك الأمثال؟

«الشامي»: أجل لأنها تنفي عن الحب ما يحيط به من الشبهات، وتصل بك إلى الحب الخالص، فمع الحب لا مجال للإساءة فكل ما يفعله المحبوب محمود، وعطاء المحبوب لا يكتسب قيمته من مادته بل من مصدره، فطالما جاء من المحبوب فهو نفيس وثمين، وليس مع الحب إلا الجمال، فالقبح والحب لا يجتمعان، فالحبيب في عينك دائما ملك الجمال وإن كان في نظر غيرك ليس له من الحسن نصيب، فالحب المشروط بالإحسان والعطاء وجمال الصورة حب فيه دَخن، والحب الخالص لا يقبل شرطا ولا شريكا ولا دخنا.

«راغب»: فماذا عن الريحانة الثانية؟

«الشامي»: الريحانة الثانية أنت أشفقت عليها، أشفقت من سمات الحزن على وجهها، ونظرات البؤس في عينها، فأردت أن ترحمها، فأوصلتك الرأفة إلى توهم حبها، والحزن والأسى والبؤس عوارض زائلة، فإن زالت زال حبها.

«راغب»: والثالثة؟

«الشامي»: الثالثة أبدت الاهتمام بك، وعلقت الآمال عليك، وأتاحت لك فرصة القيام بدور البطل الهمام، والإنسان ضعيف أمام من يوليه الرعاية

والاهتمـام، ويرغب دوما في القيام بدور البطولة واقتحام الأهوال، فأوقعك فخ الاهتمام في مصيدة الأوهام.

«راغب»: طيب ألا يمكن أن يبدأ الحب وهما ثم يصير حقا؟ وهل البون بين الحب وتوهم الحب بعيد؟

«الشامي»: الوهم كالسراب فهل بلغك يوما أن السراب قد صار ريا؟ والبون بين الحب وتوهم الحب كالبون بين الأنبياء ومدعي النبوة.

«راغـب»: لكن الاعجاب والاستحسـان، والشـفقة والحنـان، والرعاية والاهتمـام، كلهـا أمور محببة إلى القلـب، قريبة من الحب، وليسـت على النقيض منه، كما في حالة الصدق والكذب، أو النبوة وادعاء النبوة.

«الشـامي»: إن قادت هذه الأمور إلى الوهم أصبحت على النقيض من الحب وإن ترادفـا في المظهر فهما متضادان في الجوهر، تماما مثل النائحة والثكلى، ومثل أهل المقامات والأحوال وأهل الدعاوى والأوحال.

«راغب»: إلى هذه الدرجة؟

«الشـامي»: يقول أبو حامد الغزالي: (وَأَكْثَرُ الْخَلْقِ قُوَى نُفُوسِـهِمْ مُطِيعَـةٌ لِلأَوْهَـامِ الْكَاذِبَةِ مَـعَ عِلْمِهِمْ بِكَذِبِهَـا، وَأَكْثَرُ إِقْدَامِ الْخَلْقِ وَإِحْجَامِهِمْ بِسَـبَبِ هَذِهِ الأَوْهَامِ، فَإِنَّ الْوَهْمَ عَظِيمُ الاِسْتِيلاَءِ عَلَى النَّفْسِ).

«راغب»: ويقول ابن عطاء السكندري: (ما قادك شيء مثل الوهم).

«الشامي»: أجل.

«راغب»: إذا فأنا لا زلت لا أعرف الحب.

«الشامي»: ولكن لعلك الآن عرفت ما ليس بالحب.

«راغب»: نعم، أرجو ذلك.

«الشامي»: وبعد أن عرفت ما عرفت؟ هل اكتفيت؟

«راغب»: اكتفيت وما ارتويت.

«الشامي»: وما زال لك من اسمك نصيب.

«راغب»: نعم.(إنا إلى الله راغبون)

«الشامي»: وإلى أين الوجهة؟

«راغب»: دلني يا سيدي.

«الشامي»: لعلك إن التقيت بالحكيم اليماني، تجد عنده ما لم تجده عند غيره.

* * *

عَلى العَقيق اِجتَمَعنا نَحنُ وَسودُ العيونِ
أَظنّ مَجنونَ لَيلى ما جنّ بَعضَ جُنوني
إِن مُتّ وَجداً عَلَيهم بِأدمُعي غَسَلوني

نوحـوا عَلَـيَّ وَقُولـوا هَــذا قَتيــل العُيــونِ
أيـا عُيونــي عيونــي ويـا جُفونـي جَفونـي
فَيــا فُــؤادي تَصبَــر عَلى الَّــذي فارَقونــي

* * *

الفصل الخامس

الحكيم اليماني

«**تريم**» وما أدراك ما «تريم»، مدينة يمنية يقطن فيها «الحكيم اليماني»، تقع في محافظة حضرموت وتشتهر بكثرة مساجدها حيث يبلغ عددها نحواً من ثلاثمائة وستين – على عدد أيام السنة – وكذا تشتهر بالعلم وعلماء الدين، ويوجد بها كثير من المعاهد العلمية والأراضي الزراعية والبساتين، سميت باسم بانيها – تريم بن حضرموت – في القرن الرابع قبل الميلاد، وقيل غير ذلك.

قصَّ «راغب» قصته على «الحكيم اليماني»، وأخبره عن سفره وترحاله، وختم كلامه بقوله: فما زادني السفر إلا نصبا، ولا العلم إلا حيرة، ولا الوِّرد إلا عطشا، وما زلت أرجو أن أقطف من الحب ثمرة.

«اليماني» بلهجة أهل اليمن المحببة: تقطف ثمره ولم تحذر خطره؟

«راغب»: وهل للحب من خطر؟ وهل فيه من ضرر؟

«اليماني»: بل أخطار وأضرار، ولكنه مع ذلك أحلى الأقدار.

استعاد «راغب» في نفسه لحن القصيدة المشهورة:

و برغـم الريح وبرغم الجو الماطر والإعصار فالحب سـيبقى يا ولدي أحلى الأقدار

ثم قال: وأين يكمن خطره، ومتى يقع ضرره؟

«اليمانـي»: ألم تر كم مـن الجرائم ترتكب باسمه، وكم من دماء سـالت بسببه؟

«راغب»: يا سيدي وكم من الجرائم ترتكب باسم الحرية، وكم من الكوارث حلت بسبب العلم، فهل المشكلة في البشر أم في تلك القيم؟

«اليماني»: المشـكلة في تعاملات البشـر مع تلك القيـم، وإصرارهم على تسـخيرها لأهوائهم، والانفلات منها بها، فإذا نظرنا إلى مسـألة الحب من هذه الزاوية فيمكنك أن تقول إن مشـكلة الهوى في الهوى، هنا مكمن الخطر، وهنا موقع الضرر.

«راغب»: إذا صدقت تلك القاعدة على كل القيم التي أساء الناس استخدامها فكيف تصدق على الحب، وهل الحب إلا الهوى؟

«اليمانـي»: تلك آفة البشـرية، ظنهم أن بإمكانهم ومن حقهم اسـتخدام القيم، وأن التفاوت بينهم إنما يكون في الإحسـان أو الإساءة في الاستخدام، يا عزيزي القيم تَسـتخدم ولا تُستخدم، مجرد إرادة استخدام القيم ينطوي على الرغبة في تطويعها وتحقيق المكاسب من ورائها، أخبرني بربك كيف يفلح من يريد أن يكون العدل أو الحق خادما له؟

«راغب»: صحيح كيف لم أنتبه لهذا المعنى من قبل؟ الناس بلسـان المقال

يقولون: اللهم استخدمنا ولا تستبدلنا ولسان حالهم يوحي بأنهم يريدون أن يستخدموا ربهم لتحقيق مأربهم، وتكتمل الصورة القاتمة بخروج متبجحٍ معتوه يصيح متسائلا: هل الرب خلقنا أم نحن من خلقناه؟

«اليماني»: لا شك أن كثيرا من الآلهة التي عبدها البشر كانت من خلقهم، وتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

«راغب»: لطفا يا سيدي نعود إلى قضية الحب، وهل الحب إلا الهوى؟

«اليماني»: الحب هوى الروح فإذا جعلته هوى النفس فسد، ولذلك قلت لك إن مشكلة الهوى في الهوى، أي أن مشكلة الحب في الأهواء حين تتلاعب بالمحبين وتعصف بهم، سواء أكانت تلك الأهواء نابعة منهم أو من حاسديهم.

«راغب»: ولكن لماذا يحسد الناس المحبين؟

«اليماني»: يحسدون المحب لأنه يبصر ما لا يبصرون، ويعرف ما لا يعرفون، ويشعر بما لا يشعرون، ولأنه وهب قلبه لما خلق له فحقق الغاية من وجوده.

«راغب»: هذا عن المحب فماذا عن المحبوب؟

«اليماني»: المحبوب مرآة حبيبه، ويرون فيه ما لم ينالوا فيحسدونه، كما حسد إبليس أول البشر، وحسدت اليهود سيد البشر.

«راغب»: وكيف يسير المرء في طريق الحب بلا خطر؟

«اليماني»: الحذر يجنبك الخطر، والصبر يمنع عنك الضرر.

«راغب»: مما الحذر؟ وعلى ما الصبر؟

«اليماني»: الحذر مما يعكر صفوه، والصبر على ما يصيبك بسببه.

«راغب»: وماذا يمكن أن يصيب المرء بسبب حبه؟

«اليماني»: انظر ما أصاب يوسف عليه السلام من الحب، أحبه أبوه فحسده أخوته فكادوه، وفي الجب ألقوه، وبالثمن البخس باعوه، وأحبته امرأة العزيز فدعته إلى الفجور، فلما استعصم اتهمته زورا وسجنته سنينا.

«راغب»: العجيب أن الناس يحسدون المحبوب ولا ذنب له، وما أساء يوسف عليه السلام لإخوته حين أحبه أباه، وأنا إذا خيرت بين أن أكون محبا أو أكون محبوبا لاخترت أن أكون محبا.

«اليماني»: ولما؟

«راغب»: يحسد الناس ليلى على حب قيس لها، وأنا أغبط قيسا على حبه لليلى، فلولا حبه لها لما ترقى في المعاني، ولما أبدع في القصائد.

«اليماني»: المحب يكابد الصعائب، والمحبوب ينال الكرامات والعطايا والرغائب، والأجمل والأكمل والأفضل أن تكون محبا ومحبوبا، وطالبا ومطلوبا، وسالكا ومجذوبا.

«راغب»: وماذا غير الحسد والكيد والاتهامات الباطلة والسجن، أهناك مصائب أخرى غير ذلك؟

«اليماني»: ويحك وماذا تريد أكثر من ذلك.

«راغب»: أريد أن أكون على بينة من كل أضرار الحب وأخطاره.

«اليماني»: ها قد عرفت أمهات الأضرار، وبقي أن تعرف أمهات الأخطار.

«راغــب»: قال أحدهم لو أني أعرف أن الحب خطير جدا ما أحببت، وأنا أحسب أن خطره يزيد من جماله، فالخطر هنا جاذب لا مانع.

«اليمانــي»: لا تتعجل بالحكم قبل معرفــة الخبر، ولا تتمنى الحب قبل معرفــة الخطر، أنت اليــوم تتكلم من منطلق كل ممنــوع مرغوب، وربما غدا تتكلم من منطلق لو عرفتم الغيب لاخترتم الواقع.

«راغب»: فأخبرني عن الأخطار لعلي أحذرها.

«اليماني»: إياك أن تحب بالعقل، فالحب نعيم الروح وجحيم العقل.

«راغب»: هذه ليست بالهينة.

«اليماني»: وإياك من إساءة الأدب مع من تحب أو في حضور من تحب.

«راغب»: وهذه أشق من أختها.

«اليماني»: وإياك من الظلم في الحب.

«راغب»: الظلم لمن؟

«اليماني»: الظلم للحب أو للمحبوب، والظلم من أجل المحبوب.

«راغب»: وهذه ثالثة الأثافي.

«اليماني»: وإياك والدعاوى الكاذبة.

«راغب»: ومن أين تأتي تلك الدعاوى يا سيدي؟

«اليماني»: من الشكوك والظنون والأوهام الساترة والأماني الخادعة.

«راغب»: لنعد إلى البداية يا سيدي ولنأخذ الأخطار واحدا واحدا، لماذا ترى أن الحب جحيم العقل؟

«اليماني»: لأنه ليس من شأن العقل أن يحب، وإن أحببت بالعقل فقد قيدت الحب بعقال، وجعلته عملية حسابية، العقل لا يستطيع أن يشعر، ولا يمكنه أن يفسر أحوال المحبين ومواقفهم.

«راغب»: أليس الاستحسان العقلي نقطة البداية، عندما يستحسن العقل صفات شخص ما ويدرك ما فيها من الجمال وما في تصرفاته وأفعاله من الجودة والرقي فإن القلب تلقائيا يميل إليه ويهواه، أكذلك هو؟

«اليماني»: لا.. ليس كذلك.. العقل على سبيل المثال يستحسن صفة الذكاء فهل كل الأذكياء جديرون بالحب؟ والعقل يستحسن صفة القوة لكن القلب يميل إلى الضعفاء، أليس كذلك؟

«راغب»: المسألة ليست في صفة بعينها ولكن في المحصلة النهائية لصورة هذا الشخص أو ذاك الشيء هل هي إيجابية فتستحسن أم سلبية فتستقبح.

«اليماني»: قديما سُئلت امرأة عربية عن أحب أبنائها إليها فقالت: الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يشفى، والغائب حتى يحضر، وقديما قال الإمام علي رضي الله عنه: لو كان الدين بالعقل لكان باطن الخف أولى

بالمسح من ظاهره، وأنا أقول لك: لو كان الحب بالعقل لكان الكبير والصحيح والحاضر أولى بالحب لنفعهم لأمهم وحمايتهم لها، وهذا المنطق هو ما أوقع إخوة يوسف عليه السلام في الشر وكاد أن يهلكهم حين قالوا: ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة، إن أبانا لفي ضلال مبين... فأيهم كان في الضلالة حينها من وجهة نظرك يعقوب عليه السلام حينما أحب بقلبه أم إخوة يوسف عندما حكموا على الحب بعقولهم؟

«راغب»: هذا الكلام أفهمه على المستوى النظري أما في الواقع العملي فأجدني أعقل بقلبي وأشعر بعقلي، وفي النهاية فالقلب والعقل والروح والنفس كلها تعبر عن الجوهر أو الذات، أي أن العقل عقلي والقلب قلبي والروح روحي والنفس نفسي فهي أنا وأنا هي.

«اليماني» منشدا:

هلا هلا هيّا اطوى الفلا طيّا

وقربي الحيّا للنازح الصب

جلاجلٌ في البيدْ شجيّةُ الترديدْ

كرنّة الغِريدْ في الفَنن الرَّطب

أناح أم غنّى أم للحمَى حنّا

جُليجلٌ رنّا في شُعَب القلب

هلا هـلا سيــري وامضــي بتيسيــر

طيري بنــا طيــري للمــاء والعشــب

طيري أسبقـي الليلا وأدركـي الغَيلا

العــهدَ مــن ليلــى ومنــزلَ الحــبِّ

بــاللّه يا حــادي فتِّــشْ بتْوبــاد

فالقلب في الوادي والعقلُ في الشِّعب

ثم استرسـل «اليماني» قائلا: القلب في الوادي والعقل في الشـعب، صدقت يا شـوقي. ثم تطلع إلى عيني محاوره وأضاف: نحن في واقع طغت فيه المادية فأصبح من الصعب علينا التعامل مع حواسنا الباطنة، ولذلك سأضرب لك مثلا بالحواس الظاهرة، فالبصر بصرك أيضا والسـمع سمعك، ولكن هل يعني هذا أنه يمكنك أن تسـمع ببصرك وتبصر بسـمعك؟ وهل يمكنك أن تشـم بلسانك وتتذوق بأنفك؟ نعم كلها حواسـك أنت ولكن لكل منها وظيفته، وكل ميسر لما خلق له، وكذلك حواسك الباطنة أو اللطائف التي اودعها اللطيف فيك، العقل والقلب والنفس والروح، ولكنك لا تجيد التعامل معها فتختلط عليك الأمور.

«راغب»: هذا أول الأخطار فماذا عن ثانيها؟ حذرتني يا سـيدي من إساءة الأدب مع المحبوب أو في حضوره، فهل تذهب إساءة الأدب بالحب؟

«اليماني»: إساءة الأدب البسط منبعها، ومظنة رفع الكلفة مدادها، وهتك الستر وكشف السر نتاجها.

«راغب»: وهل هناك كلفة بين المحبين؟

«اليماني»: الحقيقة أنه ليس هناك كلفة بين المحبين، وكما قالوا قديما إذا اكتملت الألفة ذهبت الكلفة، ولكن ذهاب الكلفة لا يعني التهاون في الاحترام أو النقصان في الحياء، وبعض المحبين يظنون أنهم معذرون بالحب عن الإحسان، والإحسان لا ينفصم عن الحب، فيسيئون التصرف بتكلفهم سلوك ما ليس لهم أن يسلكوه.

«راغب»: ومن هنا يبدأ الظلم.

«اليماني»: أجل. وهو ثالث الأخطار كما أخبرتك.

«راغب»: فما ظلم المرء للحب؟

«اليماني»: أن ينسب له ما ليس منه، أو أن يثبت له ما ليس فيه، أو يقول فيه بغير علم.

«راغب»: فما ظلم المحب للمحبوب؟

«اليماني»: أن يتحدث باسمه، أو أن يتصرف دون إذنه، أو يُمضي حكمه ويقول إنه حكمه.

«راغب»: أبا العامرية قلبُ الفتاةِ يقول وينطقُ عن نبله

فأصغِ له وترفّقْ به ولا يَسْعَ ظُلمك في قتله

أأظلم ليلى؟ معاذَ الحنان متى جار شيخٌ على طفله؟

هو الحُكْمُ يا ليلَ ما تحكمين خُذي في الخطاب وفي فصله

ثم استرسل «راغب» قائلا: فلما أخذت في الخطاب وفي فصله، خالفت ما في قلبها وحكمت بغير حكمه، ولكنها بهذا ظلمت نفسها قبل أن تظلم قيسها.

«اليماني»: إذا ظلمت المحبوب فقد ظلمت نفسك، وإذا فقدته فقدتها.

«راغب» مستدركا: ولكن الظلم أحيانا لابد منه، ولو لم تفعله ليلى لنالها وأهلها من الهوان ما لا تحتمله الجبال، وقد ظلمها أبوها حين ادعى أن الحكم لها وأن فصل الخطاب في يدها والحقيقة أنه في يده والحكم قد قرر سلفا.

«اليماني»: ها أنت قد بدأت تلتمس لها العذر.

«راغب»: لست متأكدا، قلبي يميل إلى اجتماع المحبين، وعقلي لا يريد لهما الضرر.

«اليماني»: إذا بدأت تميز بين بكاء القلب ونداء العقل، وأدركت أن القلب في الوادي والعقل في الشعب.

أومأ «راغب» برأسه موافقا ثم قال: فماذا عن الظلم من أجل المحبوب؟ كيف يكون؟

«اليماني»: عندما ينسى المحب كونه محبا ويقوم بدور القاضي والشرطي، فيصدر الأحكام على العباد وينفذها على الرقاب، وعندما يظن أنه أعلم وأحرص على المحبوب حتى من نفسه، وعندما تداس القيم الباقية من أجل القيم البالية.

«راغب»: أوَ كل هذا في الحب يقع؟

«اليماني»: بلى. وهو منبع الجرائم التي ترتكب باسمه، باسم حب الله أو حب الوطن أو حب الدعوة وهلم جرا.

«راغب»: بقيت الرابعة.. الدعاوى الكاذبة.. خافضة أكيد لا رافعة.

«اليماني»: أشنعها وأشدها خطرا، يندرج تحتها ما سبق وتزيد عليه في الكذب، فمما سبق يتبين لك أن بعض الناس قد يقعون في الظلم من أجل حب صادق وهؤلاء يظلمون ويفجرون ويفتكون من أجل حب كاذب، وقد يسئ بعض البشر الأدب بدافع من حب حقيقي وهؤلاء يسيئون ويتطاولون بل ويتمرغون في الوقاحة بدعاوى حب وهمي.

«راغب»: اللهم الطف بنا في حبنا، إن الفرق واسع والبون شاسع إذن.

«اليماني»: أجل.. الفرق بين المحبين ومدعي المحبة كالفرق بين النبيين ومدعي النبوة.

«راغب»: أشعر أنني سمعت هذا الكلام من قبل.

«اليماني» مسترسلا: والبون بينهم كالبون بين الحكماء والحمقى، والنبلاء والسفلة، والمشايخ وقطاع الطرق، والأطباء والحلاقين، والمسيح بن مريم والمسيح الدجال.

«راغب»: صفهم لي أعرفهم.

«اليماني»: التكلف ديدنهم، والوضاعة شأنهم، والروغان صنعتهم، والتخليط حالهم.

«راغب»: زد في وصفهم.

«اليماني»: يتمثلون أقوال المحبين ويتمسكون بشطحاتهم، وهم أبعد ما يكونون عن أعمالهم وأحوالهم، فيكرهون الناس في أحلى الناس.

«راغب»: أيزيدون أم ينقصون؟

«اليماني»: بل يزيدون ويقلد بعضهم بعضا حتى يصبح المحب الصادق بينهم غريبا ومتهما، تماما كما ترى على سبيل المثال الصورة المكرورة المجوجة لشخصية الريفي أو الصعيدي أو اليهودي في الأعمال الفنية، وطريقة كلامهم وترديد ألفاظ بعينها بمناسبة وبغير مناسبة، والسبب أن اللاحق يقلد السابق ولم يتكلف مؤنة الانتقال إلى الريف أو الصعيد ليعاشر أهلها ويسمع منهم ويرى، حتى إذا جاء فرد من أهل هذه المناطق الأصليين ظنه الناس من المدعين.

«راغب» منشدا:

إنما الدنيا على ما جبلت جيفة نحن عليها نصطرع
فسد الناس وصاروا إن رأوا صالحا في الدين قالوا مبتدع

«اليماني»: نعم وإن رأوا صادقا في الحب قالوا مدع.

«راغب»: وهذه الأخطار وتلك الأضرار أما لها من علاج؟

«اليماني»: درهم وقاية خير من قنطار علاج، فاحذر منها وفر.

«راغب»: وإن وقع المحذور فأين المفر؟

«اليماني»: لا مفر.

«راغب»: لا المفر من جحيم العقل..! لا المفر من سوء الأدب..! لا المفر من وقوع الظلم..! لا المفر من الدعاوى والكذب..! أهذا ما تقوله يا سيدي؟

«اليماني»: فأخبرني أنت على سبيل المثال كيف تفر من عقلك؟

«راغب» متحيرا: لست أدري.

«اليماني»: ألم أقل لك. إنك لن تستطيع منه فرارا؟ لكن على الأقل تستطيع أن تعلم أن عقلك يحيا داخلك فلا تحيا داخل عقلك.

«راغب»: يعني ينبغي أن يكون العقل أداة للإنسان لا أن يكون الإنسان أداة للعقل حتى يفر من الوقوع في أسره. فأين المفر من سوء الأدب؟

«اليماني»: ألا يغيب الحياء عن قلبك طرفة عين، وأن تحفظ السر فلا تبوح ببنت شفة.

«راغب»: فماذا عن الظلم في الحب؟

«اليمانـــي»: الفرار من الظلم علـــى عكس الفرار من العقل، فعليك أن تحيا داخل الحب لا أن يحيا الحب داخلك.

«راغـــب»: يعني على المرء أن يســـلم نفســـه كاملة للحـــب لا أن يحاول أن يحتويه، لم يبق سوى الدعاوى الكاذبة؟

«اليمانـــي»: لا تقبل في الحب ســوى الحقائق واجتنب الظنون والشــكوك والأوهام والأماني، ولا تســمع فيه إلا شهود العدل والصدق واحذر كل الحذر من شهود الزور والكذب من داخل نفسك أو من خارجها.

«راغــب»: يبدو أنــه بالفعل لا مفر، فكل ما ذكرت يقــع في دائرة الوقاية بأكثر مما يقع في دائرة العلاج.

«اليماني»: هل اكتفيت؟

«راغــب»: ليس بعد. فقد عرفت طرفاً مــن قصص المحبين الذين أصابتهم الأضرار، والآن أريد أمثلة من قصص المحبين الذين وقعوا في الأخطار.

«اليماني»: هذه ليلى حَكَّمت عقلها في حبها ففقدت قيســها، وهذا الحلاج باح بما لا يجوز البوح به، فكان ذلك في شــريعة الحب إساءة، فاستباح القوم دمــه، وذاك عطيل قتل حبه بيــده من جراء ظلمه حين أعمتــه الغيرة، وأما أصحــاب الدعاوى الكاذبة فحدث ولا حرج، فهم كُثُــر لكن لا أحب أن يكون لهم شأن يذكر.

«راغب»: تذكر يا سيدي ما بدأت به حواري معكم؟

«اليماني»: أجل يا ولدي، قلت: (فما زادني السفر إلا نصبا، ولا العلم إلا حيرة، ولا الورد إلا عطشا، وما زلت أرجو أن أقطف من الحب ثمرة).

«راغــب»: وقد حكيت لي عن أخطاره، وقصصت علــى من أضراره، فهلا كشفت لي عن ثمرة من ثماره؟

« اليمانـــي»: في عام ١٦٣١ م كان شـــاه جاهـــان – حاكم إمبراطورية مغول الهنـــد في أوج عزهـــا– كئيباً عندما ماتت زوجته ممتـــاز محل – أي مختارة القصـــر – وذلك أثناء ولادة طفِلهما الرابع عشـــر، فبـــدأ بناء تاج محل في عام ١٦٣٢ م، وتم الانتهاء من الضريح الرئيسي في عام ١٦٤٨ م والمباني والحديقة المحيطة انتهت بعدها بخمسة سنوات. الإمبراطور شاه جيهان نقش على تاج محل هذه الكلمات:

هل يجب على المذنب أن يلجأ إلى هنا
ليصبح مثل المعفو عنه خاليا من الخطيئة
هل يجب على الآثم أن يشق سبيلا لهذا القصر
ليتم التخلص من جميع خطاياه السابقة بعيداً
مرأى هذا القصر خُلِق من تناهيد الأسى
والشمس والقمر تذرف الدموع من عيونهم
في هذا العالم تم بناء هذا الصرح
لإظهار مجد الخالق فيه.

فهذا القصر ثمرة من ثماره، كقصائد المجنون، وصرخات الحلاج.

«راغـــب»: صرخات الحلاج وقصائد المجنون ثمارا معنوية، والقصر ثمرة مادية، فهل يستويان؟

«اليمانـــي»: في الحـــب تمتزج المعانـــي والمباني، فهو القنطـــرة بين البدن والـــروح، وبـــين الدنيا والآخـــرة، وبين الماضي والمســـتقبل، وبـــين الحقيقة والخيال، وبين البصر والبصيرة، بل بين العبد والرب.

«راغب»: وأين تجد هذا المزج في ذاك القصر؟

«اليمانـــي»: كمـــا ترى اللوحـــات الفنية في أبيات المجنون، وكما تســـمع الســـيمفونيات الموســـيقية في صرخات الحـــلاج، تجد في تاج محـــل المزج بين بحـــيرات الهند وأنهار الفردوس، وبين المـــآذن والأضرحة، وبين تدرج ألوان الزهـــور وتدرج ســـاعات النهار، ومع انعكاس أشـــعة الشـــمس الذهبية على الأعمدة والأســـطح الرخامية، وتجـــد أيضا المزج بين الفن الهندي والفارســـي والتركي والعربي.

«راغـــب»: لا زلت أجد صعوبة في قبول فكرة المبالغة في المباني للتعبير عن المعاني الرقيقة.

«اليماني»: لو كانت المسألة هي رغبة المحب في تكريم جسد المحبوب بعد وفاته فإكرام الميت دفنه، ولا يتطلب هذا كثير بناء، ولكن الفكرة فيما ســـكن قلب المحبوب من معاني تضيق لها العبارات، ولا تتسع لها المباني.

«راغب»: وهذا يعني أن حجم تاج محل هو تعبير عن حجم الحب والوفاء في قلب شاه جيهان تجاه زوجته ممتاز محل؟

«اليمانـــي»: لا. إنما هو تعبير عن قدرة وإمكانات الرجل وعصره، فأقصى

ما اســتطاعه وقتها أن يستخدم عشــرين ألف عامل لمدة عشرين سنة، ولو كان أوســع ســلطانا أو في عصر أكثر تقدما لزاد في البناء والزخرفة، يعني يمكنك أن تقول إن المباني هنا على فخامتها مجرد إشــارات لما سكن القلب من المعاني وليس تجسيدا لها.

«راغب»: إذن فالبناء يأتي على قدر الوســع لا على قدر العشق، يا حسرة على من لا وسع لهم.

«اليماني»: هؤلاء تبقى مبانيهم حبيسة صدورهم، ولو أطلعت عليها ربما تجدها أكثر جمالا وأضخم بناء من تاج محل.

«راغب»: أخطار جسيمة، وثمار جميلة، هذا هو الحب.

«اليماني»: والآن بعدما عرفت ما عرفت، هل اكتفيت؟

«راغب»: اكتفيت وما ارتويت.

«اليماني»: ومازال لك من اسمك نصيب؟

«راغب»: نعم. (إنا إلى الله راغبون).

«اليماني»: فإلى أين؟

«راغب»: لست أدري.. دُلني.

«اليماني»: لم يبق لك ســوى طيبة الطيبة تلقى فيها الحكيم المدني، إن لم تجد بغيتك عنده فلن تجدها عند غيره.

يا قلبى على أهل المدينة

قالوا: الروح أغلى

قلت: والمدينة أحلى

قالوا: العمر رايح

قلت: فراق المدينة جارح

يا طيبة والله أنت الحبيبة مهما بَعَدنا عنك قريبة

في جوارك أغلى الأحبة في قلب الروضة الرحيبة

* * *

الفصل السادس

الحكيم المدني

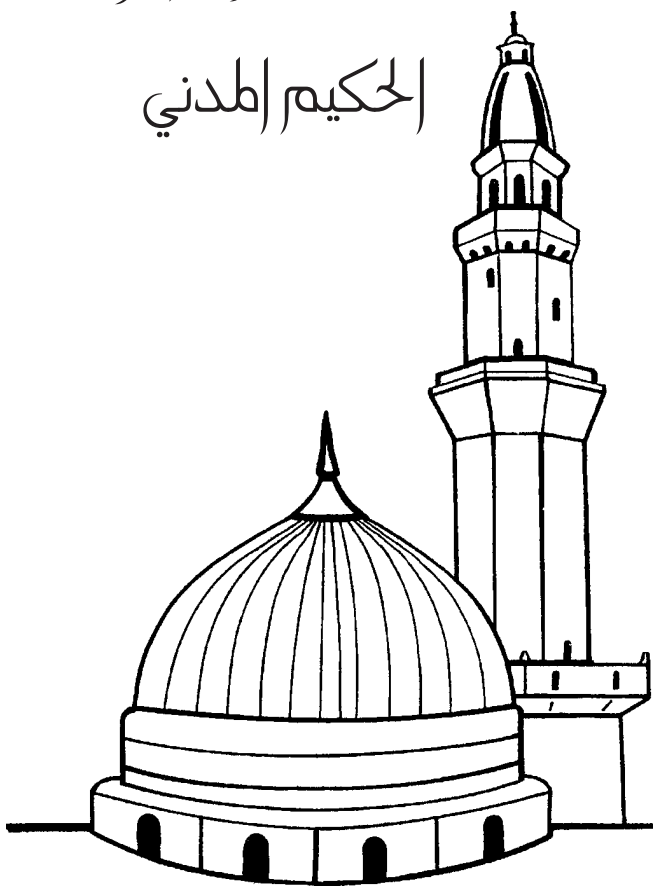

قالت جدتى:

أهل المدينة ومين زيكم يا أهل المدينة زى العيد والأنوار والزينة. شوفتهم تفرح القلب وتسعد الحزينة. كرمهم بالنبى موصول. وكلامهم حلو ومعسول وعن طبيعتهم ايش ح نقول الطيبة فيهم أصل وأصول قلبهم للضيف مفتوح البيت بيتك تجى وتروح والعين تفداك والقلب والروح يا زاير المدينة أهلها صروح للعلم وللسنة والفقه شروح الكف ميزان والخير ألوان والبركة حاصلة من دعوة العدنان.

والآن لنــذر أهل المدينة ولنذهب إلى الحكيــم المدني، أي نتركهم لنعود إليهم، لنشهد الفصل الأخير من رحلة صاحبنا «راغب الغريب»، وما هي إلا رحلة خلف رغبة غريبة، رغبة لا ترتوي وغربة لا تنتهي.

كان الموعــد «الخنــدق»، تلك البقعة الطاهرة التي شــهدت تكالب أحزاب الشــر والكراهية والقســوة على مدينة الخير والحب والرحمة، وما أحســن وأفضل وأقوم أن ينتصر الحــق على الباطل، والجمال على القبح، والرفق على العنف، داخل نفوس البشــر وخارجهــا، وأي نصر للحق لا يصاحبه الجمال ويلازمه الرفق هو نصر زائف، ظاهره فوز وباطنه خســر، تشهد عليه سورة العصر.

التقــى الرفيقان، وأخذ «المدني» بيد صاحبــه «الغريب» ليرتقي به الدرج المؤدي إلى مســجد «الفتح» على جبل «سلع»، ذلك المسجد الذي أسسه الخليفة الراشــد «عمر بــن عبد العزيز» في المكان الذي كان يشــرق منــه النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على موقع الغزوة المباركة وفيه دعا على الأحزاب فاســتجاب له القوي العزيز.

جلس الصاحبان على السور المحيط بفناء المسجد ذي المساحة الصغيرة والمطل على الجبل والمسجد الأبيض الكبير المنير المسمى بمسجد السبع مساجد والساحة المعدة لمواقف السيارات والحافلات، أما «الخندق» نفسه فلم يعد له اليوم أثر.

و في تلك الليلة الهادئة المقمرة، ومع تلك النسمات الرائحة الغادية، بدأ الحوار بين القلوب والعيون والألسنة.

* * *

«راغب» بعدما حكى للحكيم قصته: هذه يا سيدي رحلتي من الإسكندرية بمصر المحروسة إلى تريم باليمن السعيد.

«المدني» بابتسامة هادئة: يحرسك الله ويسعدك يا بني.

«راغب»: وبعد الشام واليمن ها أنا ذا قد وصلت إلى طيبة الطيبة، فماذا سأجد فيها يا ترى؟

«المدني»: اللهم بارك لنا في شامنا ويمننا، ولعلك تجد في طيبة السر المصون والجوهر المكنون.

«راغب»: سافرت كثيرا، وبحثت كثيرا، وسألت كثيرا، وعرفت كثيرا، لكني لم أجد بغيتي.

«المدني»: نعم بحثت وفتشت، وسألت واستفسرت، ولعله قد حان الوقت لينقطع السؤال منك ويتوجه السؤال لك.

«راغب»: السؤال امتحان، والسائل في أمان والمسئول في خطر، والسائل معذور والمسئول ملوم.

«المدني»: هكذا الحياة، السائل بالأمس مسئول بالغد، والمنطلق في الحاضر موقوف في المستقبل، (و قفوهم إنهم مسئولون)، وكما تدين تدان.

«راغب»: هات يا سيدي السؤال والله المستعان.

«المدني»: أرأيت لو أن رجلا ظمأنا ضرير العينين يبحث عن الماء، هل يصل إليه؟

«راغب»: نعم إذا وجد الدليل الذي يأخذ بيديه.

«المدني»: أليس الأجدر به والأفضل له أن يبحث عن الطبيب الذي يعالج عينيه بدلا من الدليل الذي يأخذ بيديه؟

«راغب»: بلى. صدقت يا سيدي.

«المدني»: أفرأيت إن كان لهذا الرجل أطفال صغار يحصرهم العطش ويعصرهم، وهو يبحث في الأرض والسماء وليس معه وعاء، فكيف سيحمل لهم الماء؟

«راغب»: صدقت يا سيدي. لا ينقل الماء بغير وعاء.

«المدني»: فأين بصرك الذي ستبصر به المحبوب إن وجدته؟ وأين وعاؤك الذي ستحمل فيه الحب إن أدركته؟

أسـقط في يد «راغب» وجعل يقلب كفيـه وينظر بين يديه كأنما يبحث عن شيء ما ثم قال: صحيح أين الوعاء؟

وضع «المدني» يده على صدر «راغب» وقال: قلبك بصرك ووعاؤك.

«راغـب»: البعيد عـن العين بعيد عن القلب، فكيف سـيبصر قلبي ما لم يدركه بصري ولم تنعم به عيني؟

«المدنـي»: البعيد عـن العين بعيد عن القلب، هذا مـا تقوله أنت، أما أنا فأقول: البعيد عن القلب بعيد عن العين وإن كان شـاخصا أمامها فهي في عمى عنه، إن لم يشـعر القلب بوجود المحبوب فكيف سترى العين جماله؟ وإن لم يتعرف القلب على كماله فكيف ستمتلئ العين من جلاله؟

«راغب»: لقد ظننت أن العين نافذة القلب، وكثير من العاشقين والمحبين تحدثوا عن ذلك.

«المدني»: نعم قد تعشق العين قبل القلب أحيانا وقد تعشق الأذن قبل العين أحيانا، لكن الحكم في النهاية للقلب وحده إما أن يصدق ذلك العشق أو يكذبه، وقد يعشق الإنسان الذي فقد سمعه أو بصره لكن لا يعشق أبدا من مات قلبه.

«راغـب»: أيعني هذا أن المحبوب قد يكون بجانبي يظلنا سـقف واحد، تراه عيني وتسمعه أذني ولا يدركه قلبي !

«المدني»: بلى.

«راغب»: يا ويحي.

«المدنـــي» مدندناً: دور عليه تلقاه.. دور عليه دور.. يا لي عينيك شـــايفاه وبرضه بتدور.

«راغب»: وبعد كل ما كان، وبعد الســفر والنصب والترحال، وبعد السعي وراء المحبــوب، والجــد في طلب الوصــال، أدرك أنني صفــر اليدين، خالي الوفــاض، وأنه بدلا من البحث عــن المحبوب والحب كان الأجدر بي البحث عن القلب المحب.

«المدني»: إذا حصلت القلــب المحب فقد حزت الحب وفزت بالمحبوب، فالحب موفور والمحبوب موجود لكن القلب مفقود.

«راغب»: وأين أجده؟

«المدني»: بين جنبيك.

«راغب»: ولماذا لا أشعر به؟

«المدني»: لأنك لا تعبأ به؟

«راغب»: كيف لا أعبأ به ولا حياة لي إلا به؟

«المدني»: لو كنت تعبأ به كنت شعرت به.

«راغب»: فمن أين أبدأ؟

«المدنـــي»: أطل النظر فيه، وألقِ الســمع إليه، وأطعمه بالخدمة، واســقه بالذكر، من هنا نبدأ.

«راغب»: ثم ماذا بعد؟

«المدني»: ثم تنتظر العشق.

«راغب»: الانتظار ثانية.. لطالما ظننت أن أشق الأعمال الانتظار والاختيار.

«المدني»: نعم.. ولكن ليس في كل حين، فالصبر مر إلا الصبر الجميل.

«راغب»: ومتى يأتي هذا العشق المنتظر؟

«المدني»: الساعة أو عند قيام الساعة.

«راغب»: وهكذا أصبح العشــق مثل المهدي من علامات الساعة، ولكن بما سيفيد العشق إذا قامت الساعة؟

«المدني»: إذا كانت فســيلة النخل تستحق أن تغرس إذا قامت الساعة أفلا تستحق فسيلة القلب ذلك؟

«راغب» متمتما: بلى.

«المدني»: وكما سيملأ المهدي الأرض عدلا بعدما ملئت ظلما، سيملأ العشق القلب نورا بعد أن ملئ ظلمة.

«راغب»: وهذا الانتظار للمجهول ألا يعد من الخمول؟

«المدني»: العشق معلوم وليس بمجهول، والوصول محظور بغير الخمول، أمــا سمعت قول ابن عطاء -رحمــه الله-: (ادفن وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه).

«راغب»: إنما قصدت السلبية.

«المدنـــي»: عرفت ما قصدت، ولكني أحببـــت أن أدلك على بابين وأمنحك جوابـــين في نفس المســـألة، والآن أخبرنـــي أيها الغريب الأريـــب: أمحمودة السلبية أم مذمومة؟

«راغب»: أحسبها مذمومة.

«المدني»: هل تســـتقيم حياة البشـــر بالفعل فقط دون الترك؟ وبالسير أبدا دون الوقف؟ وبالكلام على الدوام دون صمت؟ وهل كانت التوجيهات القرآنية للمؤمنـــين في مكة بكـــف الأيدي وإقامة الصـــلاة ترويضا لهم على الســـلبية؟ الســـلبية ليست دائما مرادفا للتقصير والانهزامية، دعك من الأوهام الحداثية التي تتصور أن الإنسان هو الصانع الرئيس والفاعل الوحيد في الأرض.

«راغـــب»: العديـــد من المفكرين طعنـــوا في فكرة المهـــدي المنتظر خوفا من التكريس للظلم والتثاقل إلى الأرض.

«المدني»: إذا تعاطى الناس بتصورات ســـيئة مع الأفكار الحسنة فلا يعني هذا أن علاجهم في هدم أفكارهم، من قديم أساء الناس التعامل مع قضية القدر، فجاءهم من يقول: لا قدر والأمر أنف، أتراه كحل عيونهم أم أعمى أبصارهم؟

«راغب» مازحاً: وهل يدخل ضمن هذا قول الشاعر:

لا حاسلم بالمكتوب ولا حارضى أبات مغلوب
وحاقول للدنيا يا دنيا أنا راجع للمحبوب

«المدنـــي» باسمـــاً: أولاً ليس هناك تعارضـــاً بين التســـليم بالمكتوب وعدم الرضا بالهزيمة، فنحن مطالبون بالكر بعد الفر، ولكن مع ذلك يمكن التماس

العذر للشـاعر، فالناس عادة يخوضون في القدر بغير علم، ويثبطون المثابرين والمجاهدين من باب الرضا بالقليل أو الاستسـلام للمقادير، وينسبون غباءهم وتقصيرهـم وفشـلهم بل وكفرهم أحياناً إلى ما كتبـه الله عليهم، وهم لا كانوا معه – سبحانه وتعالى– حين كتب، ولا اطلعوا يوماً في اللوح المحفوظ على ما كتب، فإذا كان تقدير الكلام – لا حاسـلم بالمكتوب الذي يدعيه الناس حماقة بغير علم رجماً بالغيب – استقام المعنى.

«راغب»: لكل داء دواء يستطاب به إلا الحماقة اعيت من يداويها.

«المدنـي»: الخلاصة أن هناك خلط بين فكرة المهدي المنتظر وبين السـلبية بمعناها المذموم واللامبالاة تماما مثل الخلط بين التوكل والتواكل أو بين الرضا بالقدر والاستسلام للعدو، ولذلك من وجهة نظري أرى أن فكرة المهدي المنتظر فكرة إيجابية وليست سلبية والكلام في هذا المعنى يطول ولكن بإيجاز أقول أن كونه منتظرا يعني أن هناك من ينتظره والانتظار من أصعب الخيارات وأدقها والنـاس في حـال الانتظار عادة ما يكونون في أشـد حـالات الانتباه والترقب والاستعداد، انظر على سـبيل المثال لحظة انتظار صافرة بدء السباق بالنسبة للرياضيـين، أو لحظة انتظار إشـارة بدء اطلاق النار بالنسـبة للمقاتلين، أو لحظة انتظار أذان المغرب للصائمين، فليكن انتظارك للعشـق المنتظر على هذا النحو.

«راغب» باسـتياء: أهذا كل الشيء؟ أهذا كل ما عندك لي يا سيدي؟ عندما نصحـني الحكيم اليماني بالتوجه إليك أخبرني أنني إذا لم أجد عندك مطلبي فلن أجده عند غيرك، وها أنا لا أجد عندك سـوى – صمت برهة كأنما يبحث

عن الكلمة التي تعبر عما يشعر به من البؤس واليأس ثم قال مادا بها صوته – الانتظاااار!

نظر إليه «المدني» نظرة طويلة عميقة ثم قال بنبرة تجمع بين الشفقة والمزاح: وماذا كنت تنتظر؟

«راغب» منفعلا: انتظر! مرة أخرى تحدثني عن الانتظار! عقوداً من الزمان وأنا أدور في دائرة الانتظار، وعندما تفلتت مني السنين، واقترب وقت الرحيل، وعندما أردت أن أُحرر من أسر تلك الدائرة، وقطعت الفيافي والبحار حتى وصلت إلى حكيم الزمان وعلامة العصر والأوان، لا أجد عنده سوى الإصرار على العودة إلى رق دائرة الانتظار!

«المدني»: لست بحكيم الزمان ولا بعلامة العصر والأوان، لم أخبرك بهذا ولا أحسب أن «اليماني» قال لك هذا عني، أنا مجرد إنسان، اسمي «فلان»، وضع بعد كلمة «فلان» نقطة، أي فلان فقط، فلان وحسب، انتهى.

«راغب»: لا استطيع الاستيعاب، ماذا تقصد؟ تريد أن تقول أنك مجرد إنسان «عادي»؟

«المدني»: نعم ولا فخر.

«راغب»: أي فخر! هذه قصة حياة مليارات البشر.. بل هذه قصة حياتي أنا شخصيا.. عشت حياة عادية، وتعلمت بطريقة عادية، وعملت بوظيفة عادية، وتزوجت امرأة عادية، وأنجبت أولادا عاديين، وبفضل نصيحتكم سأموت ميتة عادية، فما وجه الفخر في أن تكون شخصا عاديا!

«المدنـــي»: هذا بيـــت القصيد، وهنا مربط الفرس، هـــل تبحث عن الحب لتصبح رجلا غير عادي؟ فتعلم ما لم يعلمه غيرك، وتذوق ما لم يذقه ســواك، ومن ثمة تثمر شــجرة حياتك وتموت ميتة مشرفة؟ إن كان كذلك فخير لك ألا تجده.

«راغــب»: أليــس لنا أســوة حســنة في الأنبيــاء والصديقين والشــهداء والصالحين؟ ألم يكونوا جميعا من المحبين؟

«المدني»: أما عن الأنبياء عليهم السلام فأكرمهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاطبه ربه جل وعــلا بقوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ وبقوله عــز وجل: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، فهو عليه الصلاة والســلام ما كان يرجو وما كان يريد، لكنك ترجو وتريد، ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾، وأما عن الشــهداء والصالحين فتذكر أن أول من تسعر بهم الجحيم كانوا في أعين الناس من الشهداء والعلماء والقراء والجوادين، أو بمعنى أخر كانوا غير عاديين.

«راغب»: لئن كان أول من تســعر بهم النار أناس غير عاديين فكذلك جل من يدخلــون جنات النعيم، أم تريد أن تقــول إن الصحابة والتابعين وتابعي التابعين كانوا بشرا عاديين!

«المدنــي»: غير صحيح أن جل من يدخلون الجنــة غير عاديين فأكثر أهل الجنــة البله كما ورد في الحديــث، وأما عن الصحابة وقــس عليهم التابعين

وتابعي التابعين فيقال إن عدد الصحابة أربعة وعشرون ومائة ألف حجوا مع النبي ﷺ حجة الوادع، فكم تعرف منهم؟ وأصحاب بيعة الرضوان الذين أبلغنا الله تعالى رضاه عنهم في سورة الفتح كانوا أربعمائة وألف، فكم تحصي من أسمائهم؟ ومن شهد بدرا من المسلمين وهم أفضل المؤمنين، كان منهم من لا نعرف عنه سوى ما يملأ أقل من نصف صفحة في كتاب، مثل «عمير بن الحمام» الذي سمع كلاما من فم حبيبه ﷺ ، فألقى تمرا من فمه وركض إلى ربه بغير زاد، يعني أكثر أهل النعيم هم من الناس العاديين بل وأقل من العاديين في أعين البشر وإن كانوا عند الله ليسوا كذلك، كما قال المصطفى ﷺ لزاهر: ولكنك عند الله لست بكاسد.

«راغب»: الآن فهمت، أنتم يا سيدي تشيرون إلى الفارق بين عين الله وعين الناس، فماذا عن عين النفس.

«المدني»: ذلك الخطر الكبير والشر المستطير، إذا كنت في عين نفسك عاديا وفي عين الناس غير عادي ما ضرك ذلك، إنك إذا نظرت إلى أعين الناس تعرضت لخطر الرياء، وإذا نظرت إلى عين نفسك تعرضت لأخطار العجب والعجلة والهوى وهلم جرا.

«راغب»: والانتظار هو ما سيجنبني تلك الأخطار؟

«المدني»: الانتظار سيدخلك في حال الافتقار والاضطرار، وسيضعك في دائرة الاختبار والاصطبار، فهل هذه الحال التي تريد أن تتحرر من أسرها؟ وهل تلك هي الدائرة التي ترجو أن تعتق من رقها؟

«راغب»: وإذا نظر الإنسان إلى حياته وشعر أن هناك معنى ينقصها وغيابه يجعلها حياة بلا حياة، وبدأ يبحث عن هذا المعنى ويجتهد في تحصيله، فهل يعني هذا أنه كان ينظر بعين النفس؟

«المدنـــي»: عين النفس لا يملأها إلا التراب، لا تنظر لحياتك بعين النفس ولكن انظر لها بعين القلب ترى الحقائق، واعلم أن عين القلب لا تنفتح إلا إذا أغمضت عين النفس.

«راغب»: وإذا غربت النفس وغابت فمن أنا حينئذ؟

«المدني»: لمـــاذا تريد أن تضيف تعريفا لذاتك؟ لمـــاذا تريد أن تكون راغب الباحث، أو راغب العاشـــق، أو راغب العارف، أو راغب البطل؟ ألا يكفي أن تكون راغبا فقط؟ أي راغب ثم نقطة انتهاء، والنقطة بالإنجليزية معناها Full stop، فلتكن راغبا Full stop.

و كأنما كانت النقطة إشـــارة لانتهاء الجلسة، فبعد عبارة «المدني» الأخير أخذ بيد رفيقه، وبدأ ينزل به الدرج مارا بمســـجد ســـلمان الفارسي رضي الله عنه، ثم ساحة انتظار السيارات، ثم توجه به إلى حديقة الإمام علي في الجهة المقابلة لمسجد الفتح، وهي عبارة عن حديقة مدرجة بها بقية المساجد السبعة ومنها مســـجد الإمام علي رضي الله عنه ومســـجد السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنهـــا، وأثناء ذلك أخـــرج «المدني» من جيبه هاتفـــه الجوال ولمس أحدى الأيقونـــات الموجودة على شاشـــته فانبعث لحنا موســـيقيا غريبا لم يســـمعه «راغب» من قبل، ودار بينهما ما يلي من الحوار.

«المدني»: كيف تجد هذا اللحن؟

«راغب»: أجده عذبا فريدا، كأنما يأتي من أعماق البحار أو من عنان السماء أو من وسط الغابات.

«المدني»: هل رقصت من قبل؟

«راغب» مندهشا: هذا أخر سؤال كنت أتوقعه منكم يا سيدي، والإجابة هي لم يحدث مطلقا.

«المدني»: ولما؟

«راغب»: لست أدري، ربما لم أتعلم، ربما لم أتعود، ربما أجده لا يتناسب مع شخصيتي، ربما لم أجد الرغبة.

«المدني»: وربما نظرت بعين نفسك فوجدته لا يليق بذاتك.

«راغب»: نعم ربما.

«المدني»: ومع ذلك ترقص خمس مرات في كل يوم وليلة.

«راغب» غاضباً: أترى الصلوات الخمس رقصا من وجهة نظرك؟

«المدني»: عند التجريد ما الرقص إلا تعبير عن بعض المعاني بحركات الأبدان، ومن هذا الباب يمكنك اعتبار رفع اليدين في تكبيرة الاحرام تعبيرا عن التعظيم والإكبار، والقيام بين يدي الرحمن تعبيرا عن الافتقار، والركوع والسجود تجسيدا للخضوع والخشوع، والجلوس للتشهد يصور معنى الأنس بالله، والتسليم وداع حتى حين.

«راغب»: إذا كانت كل حركات الأجسام التي تعبر عن المعاني تعد رقصا، فشـيمة الكون كله الرقـص، دوران الأفـلاك، ورفرفة الفراشـات، وطيران الأطيار، واهتزاز الأشجار والأزهار، وأمواج البحار.

«المدني»: نعم يمكنك أن تدعوه رقصا أو تسبيحا.

«راغـب»: إذا كان الرقـص له هذا الشـأن فلم لا نجده في القرآن والسـنة والسيرة؟

«المدني»: ألم يبلغك أن السـيدة فاطمة عليها السـلام كانت تُرقِّص الحسن وتقول: (ابني شـبيه بالنبي ليس شبيها بعلي). ومع ذلك اتفق معك أن اللفظ غير شـائع لكن المعنى ظاهر في العبـادات والمعاملات، انظر إلى طواف القلوب حول البيت العتيق وهرولة السـاعين بين الميلـين الأخضرين، انظر إلى رقص الحبشة بالحراب في مسجد الرسـول ونشيدهم: (محمد عبد صالح) بلغتهم، انظر إلى رقص الحراب والسـيوف في أيدي المجاهدين، انظر إلى رقص النوق على أصوات الحادين في قوافل المسـافرين، وقوله عليه الصلاة والسـلام: رفقا بالقوارير.

«راغب»: القضية ليست فقط في أن اللفظ غير شائع بل منكر ومستهجن.

«المدني»: نعم لما ارتبط به من العهر والفحش والدعوة إلى الرذائل، وكذلك الخمـر ولكن لا يخفى عليـك أن خمر الآخرة محمـودة مرغوبة وخمر الدنيا مذمومة ملعونة.

«راغب»: خمر بلا سكر، ورقص بلا عهر، هل يوجد مثل ذلك إلا في جنة الخلد؟

«المدني»: كل نعيم في الجنة تجد له شبيها في الدنيا، ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾.

«راغب»: ومع ذلك فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؟

«المدني»: نعم. هذه الكرامة لأعلى أهل الجنة منزلا.

«راغب»: ولكني ما زلت أجد الرقص لا يناسبني، فلما؟ وما من شيء في الكون إلا ويتحرك وفي حركته معان، فلما أنا لست كذلك؟

«المدني»: هذا سؤال يستحق أن تبحث له عن جواب.

«راغب»: ساعدني في الوصول إليه.

«المدني»: كما أخبرتك أنك ربما نظرت بعين نفسك فوجدته أمرا لا يليق بذاتك، فالنظر بعين النفس إلى الذات يضخمها، وعندما تتضخم الذات تثقل بالعديد من الأثقال الوهمية، وتتكبل بالعديد من الأغلال الخيالية، والإنسان المثقل المكبل لا يمكنه الانطلاق والتحرر، ثم غمز بعينه وأضاف: والرقص يحب الخفة.

«راغـب»: ولكـن يقينـا إن الكثير مـن الربانيين والصديقـين والعارفين والصالحين والمحبين لم يكن في سِـَّيرهم شـيء من ذلك، ولم يذكر عنهم، ولم يعرفوا به.

«المدنـي»: ما فهمت عني يا صاح، أنا أتحدث عن رقص اللطائف لا رقص الجوارح، واللطائف منها القلب والروح والسـر، ورقصها معناه دبيب الحياة فيها وانطلاقها، أو سـباحتها وتسبيحها، أو تحررها وعشقها، وقد ينعكس هـذا على الجوارح فتُطرب وتَضطرب وقد لا ينعكـس فيبقى في الصدور حيث تكمن تلك اللطائف وتكون، فالإنسان جوارح وحواس ولطائف، والحواس كلما شـعرت بالجمال ذكرت الجميل، ألا ترى أنك كلما رأيت أو سمعت أو شممت أو لمسـت أو ذقت شـيئا جميلا قلت: الله، فكذلك اللطائـف ولكن من الطريق المقابل، أي كلما قالت: الله، وجدت وأحست وذاقت الجمال.

عند هذه النقطة من الحوار كان الرفيقان قد وصلا إلى أعلى درجة في حديقة الإمـام علي المدرجة، والتي تنتهي بسـاحة صغيرة محاطـة ببعض النباتات والأشجار القصيرة، وبعد برهة من الصمت أعاد «المدني» تشغيل اللحن العذب الفريد، ثم أخذ يتحرك بشـكل يتناسـب ويتناسق مع هذا اللحن، فكان يرفع قدمـه اليمنى ثم يتقدم خطوة ويدق بها الأرض، ثم يؤخر القدم اليمنى ويرفع اليسـرى ثم يتقـدم ليدق بها الأرض في نفس الموقع، ثم يبسـط ذراعيه ويدور دورة كاملة، وبعد لحظات مد يده إلى «راغب» يدعوه للمشاركة.

نظر «راغب» إلى يد «الحكيم المدني» الممدودة وتذكر يد «الحكيم الفارسـي»

حينمـا كان يدعـوه إلى «الخمر»، فلم يتردد هذه المرة، ورغم شـعوره بالعجز والخجـل والحـيرة والاضطراب مد يده ليد «المدني» وتشـابكت الأيدي، وبدأ يحاول تقليد حركات «المدني» وخطواته، ولكنه شعر كأن قالبا من الجليد يحيط بصدره وقيدا من الحديد يحيط بقدمه، وتمنى لو تنهمر أشـعة الشـمس على الجليـد فيذوب وأن تنهال مطـارق الحديد على القيد فيزول، ولكن الأمنيتين لم تتحققـا، ولاحظ أن حركات «المدني» تلقائيـة وحركاته متكلفة، وخطوات «المدني» رشـيقة وخطواته ثقيلة، ودوران «المدنـي» كان طبيعيا ودورانه كان اصطناعيا، فكف عن المحاولة، وأدرك «الحكيم» ما يعانيه فأرسل يده حتى لا يثقل عليه واستمر هو في ما بدأ فيه.

و بقدر ما كان ضيق «راغب» من فشله بالغا بقدر ما كانت سعادته بمشاهدة «المدني» فائقة، فقد كان ما يراه مدهشـا حقا، فالرقصة التي يؤديها كان فيها رشـاقة وخفة ومهارة لا تتناسب مع سـن «الحكيم» وهيئته، ومع ذلك تقطر جمالا ووقارا وعذوبة، لا يستطيع أن يصفها، أقصى ما يمكنه قوله إنها كانت مزيجا من رقصة «زوربا» اليونانـي ورقص «الدبكة» اللبناني ورقصة المولوية المنسـوبة لمولانا جلال الدين الرومي، وأدرك أن هذه الخفة وتلك السرعة التي يتحرك بها «الحكيم» لا يمكن أن تكون صادرة عن جسـده، وإنما هناك شـيء لطيف داخل بدنه صارت له اليد العليا في تلك اللحظة.

سـكت اللحن عن الشـدو، وتوقف «الحكيم» عن الرقص، والتقت الأعين، وساد الصمت، ثم قطع «راغب» الصمت قائلا: ليتني استطعت.

«المدني»: لا تعجل. لكل وقت أذان.

«راغب»: وأنا في انتظار الأذان.

«المدني»: ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة.

«راغب»: مرحبا بالانتظار إذن.

«المدني»: يبدو أنه قد بلغتك الرسالة.

«راغب»: أجل. بلغني أيها الحكيم السعيد، ذو الرأي الرشيد، أن المثقلين المكبلين لا يصيروا عاشقين، وأن العشق يحب الحرية، وأنه إذا أمطرت السماء عشقا لم يفدك ذلك شيئا طالما لا وعاء لك، وأن غير العاديين على خطر عظيم، وأن عين النفس تنظر إلى الذات البشرية وعين القلب تنظر إلى الذات العلية.

«المدني»: وهل اكتفيت؟ أم لم يزل لك من اسمك نصيب؟

«راغب»: بل اكتفيت، ولم يبق لي من اسمي شيء، فأما الرغبة فقد طاحت، وأما الغربة فقد زالت، والعشق المنتظر يستحق أن ينتظر، فلم يبق سوى:

الانتظار.....

و الاصطبار.....

و الافتقار.....

* * *

تمت بحمد الله

في المدينة المنورة

يوم الثلاثاء الموافق

١٢ شوال ١٤٣٦هـ

٢٨ يوليو ٢٠١٥م

فِهرس

المقدمة ٥
الفصل الأول ١٩
الفصل الثانى ٥٣
الفصل الثالث ٨٧
الفصل الرابع ١١٧
الفصل الخامس ١٥٩
الفصل السادس ١٧٩
الفهرس ٢٠٢